خوزيه كاردوسو بيريس

ترجمة: فاضل العزاوي

مكتبة

صاحب الفخامة

الديناصور

لن ننسى تشرين . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

رواية

Author: **José Cardoso Pires** — اسم المؤلف: خوزيه كاردوسو بيريس

Title: **Dinossauro Excelentíssimo** — عنوان الكتاب: صاحب الفخامة الديناصور

Translated by: **Fadhil Al-Azzawi** — ترجمة: فاضل العزاوي

P.C.: **Al-Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **1994** — الطبعة الأولى: 1994

Second Edition: **2022** — الطبعة الثانية: 2022

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © José Cardoso Pires, 1972

and Heirs of José Cardoso Pires.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 780 808 0800 + 964 (0) 770 2799 999

+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 706 15017 + 961 175 2617

+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2275 + 963 11 232 2276

+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

٢٠٢٣ ١٠ ٣١

مكتبة

t.me/soramnqraa

خوزيه كاردوسو بيريس

مكتبة
t.me/soramnqraa

صاحب الفخامة الديناصور

ترجمة : فاضل العزاوي

كلمة عن هذه الرواية

هذه الرواية المتألقة بفكاهتها السوداء وعذوبتها وشعريتها التي تجعل منها واحداً من أهم الأعمال المرتبطة بروح عصرنا تكاد تكون رواية يعرفها كل واحد عاش الخراب الذي تلحقه الفاشية بالروح الإنسانية.

لقد استوحى الكاتب البرتغالي الكبير خوزيه كاردوسو بيريس في روايته «صاحب الفخامة الديناصور» شخصية الدكتاتور أنتونيو دي أوليفيرا سالازار الذي حكم البرتغال لمدة 36 عاماً و35 يوماً، ضمن نص يعتبر قمة إبداعية في الأدب البرتغالي الحديث، سجل أعلى المبيعات في معظم اللغات الأوروبية التي ترجم إليها مباشرة بعد صدوره. فعلى الرغم من أن خوزيه كاردوسو بيريس المولود في العام 1925 كان قد كتب قبل ذلك روايات عدة مهمة أخرى فإن روايته هذه عن «الديناصور» تمتلك عذوبة، تقربها من الشعر وتكتشف في الواقعي جانبه الخرافي الذي يرقى إلى مستوى الأسطورة.

«ديناصور» خوزيه كاردوسو بيريس مخلوق استثنائي مثل جميع الديناصورات التي مرت بتاريخ البشرية. إنه يقيم مجده الشخصي على الجهل والفقر، ولكن أيضاً على حاشية من الدجالين المحيطين به الذين يصفقون له ويرفعون صوره هم «القواقع الدنيا» التي يوجدها البؤس والذل، والتي تزحف عادة من الأعماق البعيدة من المملكة.

هؤلاء يصفقون له، حتى من دون أن يفهموا كلمة مما يقوله، إنهم يفغرون أفواههم، مفكرين ببطونهم الخاوية وفي العودة مرة أخرى إلى قراهم التي جاؤوا منها. أما حاشيته فهي طائفة من الدكاترة الدجالين الذين يكيد أحدهم

للآخر، مع الاحترام الكامل، حيث يحيي بعضهم الآخر في الشارع: «أنتم، يا صاحب السعادة».

الفاشية رغم مآسيها التي تسببها للناس، ليست أكثر من فكاهة، كاريكاتير مثير للضحك والتسلية. فالديناصور لا يكون ديناصوراً من دون مهمات خارقة يسندها إلى نفسه. كان هتلر يريد أن يثبت تفوق العنصر الآري من خلال فرض السيطرة الألمانية على العالم كله، بل وإقامة حكومة عالمية، تدوم ألف عام.

أما ديناصور خوزيه كاردوسو فقد أراد مرة تنظيف اللغة من شوائبها وإيجاد لغة نقية، لا يفهمها إلا أتباعه، وأخرى عندما راح يوجه خطبه إلى الكواكب الأخرى، بحثاً عن أتباع محتملين هناك أيضاً، ولكن الديناصور يصطدم دائماً بالصخرة القاسية للحياة ولا يترك لنا سوى ذكرى مريرة عن رجل مريض كان يضع على وجهه قناعاً ويلقي خطباً، لا نهاية لها.

قصة الديناصور هنا هي في آخر الأمر قصة كل ديناصور في تاريخ البشرية، قصة توحد الواقع بالخرافة وترتقي به إلى مستوى الخيال العلمي، وتملك مرحاً، يجعل منها طرفة في الأدب العالمي الحديث.

المترجم

قال راوي الحكايات لابنته ريتا، في هذه الأيام يمكن للمرء أن يحرم من كل شيء، حتى من الموت، ينتزع منه الموت بنفس السهولة التي تنتزع منه الحياة، المحيا أو الكلمة، طبقاً لأمور تمتلك أعلى قيمة.

قبل زمن ليس بعيداً جداً كان في مملكة القواقع الدنيا فعلاً حاكم أصيب بجلطة في الدماغ، جراء تطرفه الذي جعله ينظف الكلمات. بل يقال أيضاً إنه لا يزال موجوداً سوى أنه ليس إنساناً أو تمثالاً، لأنه قد حرم حتى من الموت. إنه لا ينتمي إلى عالمنا ولا إلى ذلك الذي تعودت الجثث الذهاب إليه، على الرغم من أنه ينتن بفظاعة. إنه لمن التملق إذا ما قيل إن ذلك ليس سوى رائحة. عصفة طاعون تجتاح مدن المملكة كلها.

القسم الأول

الرجل الذي جاء من العدم

تفترض التسجيلات التاريخية القليلة أن هذا الحاكم قد جاء بالفعل من العدم، وأنه قد ولد في مكان في كوخ لوالدين معدمين أو لصعلوكين فقيرين، فلاحين في منطقة ما، تخلى عنها الله. وأنه قد تلقى كتب القراءة الأولية للقرية بالإضافة إلى الدليل المختصر للعقيدة المسيحية، والأكثر من ذلك: إذا كان على المرء أن يصدق التسجيلات المدرسية فإنه يكون قد جاء إلى العالم كواحد من منوري الله، وإنه قبل لذلك وهو لا يزال بعد صبياً في صفوف الدكاترة.

كان يدعى حينذاك فرانسيسكو أو فيتورينو، وربما أيضاً أدولفو، ومن المحتمل أدولفو هيرتو، أو بينيتو مارسولينو، زي فولفينسيو، سيباستياو ديسخادو - كل هذا ليس مهماً في آخر الأمر، ولكن ما هو مهم هو أنه عندما انتُبه إليه، كان يحمل اسماً آخر: الحاكم، الديناصور الأول، الحاكم والمعلم، تصفيق.

«ليعش الحاكم و...
المعلم!
«ليعش...»

مكتبة
t.me/soramnqraa

عما إذا كان قد امتلك أي طفولة؟ إن هذا يظل لغزاً، فعند هذه النقطة توقفت ريشة المؤرخين عن الكتابة وقفزت بضعة أعوام إلى الأمام. فقد

حصر المؤرخون همهم في رواية أنه وهو لا يزال طفلاً كان يحمل وسم الزعيم الذي لا تخطئه العين، الزعيم الذي صاره فيما بعد والذي يتزين باسمه كل مكان في المملكة:

شارع الديناصور المشجر
كازينو الديناصور
مصرف الديناصور، عملات
الديناصور الذهبية
مطار الحاكم
أكاديمية الديناصور
نادي الديناصور لكرة القدم
قصر الديناصور
سمك شمال أطلسي على طريقة
المعمل
بريد مملكة الديناصور الأول،
طوابع تذكارية لوالد الوطن
النشيد الوطني للحاكم، ملزم
للجميع
«لا شيء يصير من دون الديناصور.» (مثل شعبي)

«المعرفة وسلطة الحاكم» كان هذا مبدأه، أما سلاحه فكان الصمت: أفمن المستغرب إذن وهو الذي -جبل وعقل على هذه الشاكلة- أن يتمكن من الوصول إلى مثل هذه السلطة التي استولى عليها لنفسه؟ أفلا ينبغي أن يكون مقدراً له بحكم الطبيعة أن يتسلل عبر ثغرات قوانين الموت، حيث إنه، وكما يعرف ذلك المرء الآن قد أمضى حياته كلها على حافة قوانين الأحياء؟

انتباه أيها المواطنون الجهلة!

لقد غني للديناصور وهو لمّا يزل في المهد، إنه سينبغ كثيراً وسيسمو بنفسه فوق أكواخ القرويين وقصور الأغنياء. ولهذا كان لا بد من تعليم يناسبه، حتى يكون مؤهلاً ليحكم الناس جميعاً. أما الحقوق فقد قررها قسيس المنطقة:

«هذا الطفل سيكون حامياً للحقوق!»

كان رئيس الطائفة، وهو رجل محب للبزات العسكرية والمارشات، يرى أن السيف وحده يأتي بالسلطة والحق، حيث إن الجندي يجسد في شخصه وحده 2 (اثنتين) من المهن، مهنة المحارب ومهنة دكتور الحقوق. فقد أدرك المرء حينذاك أن السيف يمكن أن يضرب، من دون حاجة إلى الميزان أو إلى ربطة العينين، في حين أن الحق من دون سيف، يا للعصبية، لا يعادل قلامة ظفر، إذا ما سمح بذلك التعبير. وفي عيني رئيس الطائفة كان الصغير يصلح أن يكون جنرالاً شاطراً، يحمل سبع نجوم، أو أكثر من ذلك.

عندما أراد المرء الوصول إلى قرار دخلت، سائرة بخطوات قصيرة -تك، تك- العمة العرابة للطفل، وهي دونة غنية جداً و - عانس، وإذ سمعتهم يتحدثون عن السيافين والمحاربين لم ترد أن تنتظر طويلاً، بل مدت ذراعيها إلى الأمام بإغراء وأعلنت في مواجهة المهد:

«يا له من مبشر فاضل!»

أما الوالدان وهما فلاحان ساذجان، فلم يعرفا ما ينبغي عليهما الأخذ به وفضلا اللجوء إلى جهالتهما. فإذا كان المرء قد بدأ يعجب بالصغير فأي دور يبقى لهما بعد ذلك؟ لقد رأياه وهو يكبر، وحيداً وصامتاً، وشعرا أنه يقترب مع كل يوم من مسؤولية عظيمة، خفية، بل وربما من مسؤولية واثقة، لا يعرفها إلا الله وحده.

فمن أجل رفع الحجب التي كانت تستر مصير هذا الصغير، أصر رئيس

الطائفة على أن تسند إليه وظيفة، تمكنه من أن يخدم ما هو إلهي وما هو أرضي على حد سواء. فقد سار الصليب والراية دائماً، كتفاً إلى كتف في التاريخ، وكان القادة البواسل هم الذين عبدوا الطريق، بحيث نجحت العقيدة المسيحية في الوصول إلى ما وصلت إليه (إلى الهنديات الحمراوات، إلى الغابات البدائية، بل وأبعد من ذلك). وصمدت بعدئذ أيضاً. وانطلاقاً من هذه البواعث لم يجد رئيس الطائفة خياراً أفضل من وسمه محارباً. وابتسم لذلك بحمية.

ومع ذلك فإن العرابة، العانس العجوز، والدونة بعد كل شيء، كانت غير موافقة. فقد قبضت على وريقات الميلاد التي كانت تزين بها صدرها وضربت الأرض بقدميها: مبشرٌ، مبشرٌ ومرة أخرى مبشرٌ. واعترضت قائلة إن إخوة التبشير هم المحاربون الأكثر كمالاً، لأنهم كانوا يقاتلون بأسلحة المسيح وحدها؛ وتبعاً لذلك فإنه ينبغي على الصغير أن يذهب إلى السود، وبعد فإنها في الواقع هي من يدفع عنه نفقات دراسته.

إذا ما وزع القدر أوراقه فإن أكثر الأوراق الرابحة ستكون في يد من يجيد المزج. وقد حاول الآن رئيس الدير الذي كان في آخر المطاف أحداً ما، أن يثبت حساسية أطراف أنامله، حالما أصبح في مقدوره لعب ورقته، مذكراً الحاضرين:

أنه هو راعي هذا القطيع من الخراف الضالة منذ سنوات لا تحصى، قد عقد حلفاً معيناً مع الله، ولكن ليس لأسباب مهنية. واضح؟ ولهذا وانطلاقاً من هذا الافتراض فإنه يعرف أفضل من أي شخص آخر -إنه يكرر: أفضل من أي شخص آخر- ما يعوز الكنيسة الأم المقدسة والعالم -عالم الخطأة-[1]. لا قسيس ولا محارب. هذا الطفل مستدعى للحقوق، لأسباب كثيرة، لا تحصى، جرى إثباتها[2].

«آمين»،

1- عالم الخطأة: وردت في الأصل باللاتينية.

2- جرى إثباتها: وردت في الأصل باللاتينية

ردت العرابة، العانس العبوس، وهي مأخوذة باللاتينية. ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها قائلة: «كلا، بل مبشر، العقيدة فوق كل شيء».

«آمين»،

رد كذلك رئيس الطائفة الذي كان يمتلك ضعفاً ما تجاه البزات العسكرية وأذنين صماوين لمقترحات الشركاء. تحمس قائلاً: «جنرال، جنرال بسبع نجوم. على الأقل».

«اللعبة باطلة»

قال القس موضحاً، منطلقاً من قناعة أنه يصعب جداً حتى على الساحرات أن يلقين نظرة على أوراق القدر، بأظافر أصابعهن، وكان مواتياً أن صبره من دون حدود (ذلك أنه كان يستند إلى الكتاب المقدس) وهكذا خلط الأوراق مرة أخرى محتسباً، ثم وزعها وبدأ يلعب، مزيناً مسير دكتور الحقوق بالألوان الزاهية. إن هذا قدره، مهنته، لأسباب مختلفة، يعرفها هو تماماً، ولكن أيضاً بسبب استعداد معين للتأمل، يمتلكه صبي الفلاحين. بعد ذلك بسنوات أضاف: إنه لأمر شائع وخاص تلك العادة التي تكاد تكون سيئة وهي جمع الكلمات الصعبة، العادة التي تكونت قبل كل شيء عند هذا الطفل في الآونة الأخيرة.

كارامبا! وهكذا تظل الأشباح بعيدة عن الآخرين، كلمات صعبة.... أوتورهينو لارينجو لوجي... أبراكادابرا... ريبتيلولوجي... وما يعني هذا الان؟

أوضح القس أن هذا كان يعني ما يلي، بما أن القوانين والتشريعات تتكون من كلمات فإنه ليس ثمة أدنى شك في أنها تنطلق من قاض مستقبلي، يكرس نفسه كلياً للتأمل والبلاغة: فإن حكم القانون هو الرسالة الأصعب في عيني الله، وبهذا السلام. وذكر علية القوم أن القوانين هي فوق كل شيء: «فبقوة القانون يستدعي المرء القوات وبقوة القانون يسمي المرء الجنرالات: لقد تحدثت».

وتذكيراً بهذا قام الوالدان ببيع الحمار وحديقة الخضار وأخذا الغلام الصموت مع الإيراد المتحقق إلى الجامعة الواقعة على الطرف الآخر من الجبل. وقد كابد المسكينان الكثير قبل أن يبدآ السفرة. أولاً لأن رئيس الطائفة بسبب سلطته المضمضمة نزل إلى الميدان ضد القس ووصفه كأسوأ أب للاعتراف وعدو للبزات.

«ماسوني! مثير فتن!
قربان سم!»

عند ذاك، ولأن العرابة شعرت أكثر من ذي قبل بكونها عانساً وحرمت ولد التعميد من الإرث، لم تكتب فقط إلى المطران وإنما وضعت أيضاً وصيتها لمصلحة إخوان سانتا - كروز وآخرين بأسماء أكثر طنيناً. وأخيراً أضيف إلى ذلك أن سكان القرية أخذوا يشتمون الوالدين المستعدين للتضحية، سواء بسبب الحسد أو متعة الكيد، إذ إنهما كانا في نظرهم أرعنين، يطاردان حلماً عن سيد دكتور شاب.

«هذان المجنونان! هذان
الطماعان!»
«المرتدان!»
«النفاجان!»

مكتبة
t.me/soramnqraa

يا للألم! إن مثل هذا الأذى يجب أن يتحمله أولئك الذين يواجهون اللاعدالات التي بسببها أمثالهم، من أجل هدف أسمى.

ومع ذلك فليس من دون حق ما يقال: حب الوالدين يقهر كل شيء.

وذات يوم جميل...

تسلل الريفيان مع ابنهما، مستغلين قيلولة ظهيرة القرية، هاربين في خط الباص.

يروى، ولكن من دون وجود أدلة على ذلك، إذ إنه يروى فقط بالطبع، أن الصبي الذي كان سيكون حاكماً، لم يكن موافقاً على السفرة، على الرغم من أنه كان قد تنبأ بها مسبقاً. ففي حكمته الطفولية أدرك كل الخطوات التي كانت مقدرة له، ومع ذلك كان ثمة ما جعله يحتار. ولم يعرف المرء هذا الأمر الذي كان أو الذي لم يكن إلا بعد فترة طويلة: كان يود لو أنه ركب حماراً، تشكى ذات مرة - مرة وحيدة.

«على حمار؟ يا لها من فكرة!»

بسبب ارتجاجات الباص المقرقع بعض الشيء؟ ربما، يمكن أن يكون هذا محتملاً على كل حال. أو ربما أراد أن يكون قادراً على الاختلاط بالمسافرين، من باحثي المتعة، الذين يعدون عند كل محطة استراحة إلى حانة ما ويرفهون عن أنفسهم؟ أم تراه قال ذلك وهو يفكر في الحمار الذي بيع لتمويل تعليمه ليكون حاكماً؟ هذه الأمور بالطبع ألغاز، حقائق تاريخية، ما من أثر أمام طالب المعرفة، يقوده إليها. لقد أراد الصغير الركوب على حمار، والسلام وهو لم يقل أكثر من ذلك.

وكانت الأم، وهذا؟ أمر طبيعي، قد تأثرت لهذه الرغبة المتواضعة. وطبقاً للأسطورة، فإن الأم ضمت الطفل إلى صدرها، مبتسمة من الألم ومعجبة بهدوء برقته.

«اهدأ يا صغيري، فعما قليل
نكون هناك.»

عند كل موقف، باص كان يظهر صبيان حفاة، في أيديهم العجلات المطاطية، يهللون للباص. كان بعضهم يتعلق بالسلم المؤدي إلى السقف، في حين كان آخرون يرسمون أشكالاً رجالية صغيرة على الرفوف المتربة، وكان هناك أيضاً آخرون يتفحصون الركاب في الداخل ويشتمونهم ضاحكين، من دون خجل؟ وكان هناك دائماً أيضاً من يجس المبرد الذي كان يهتز من الحر والتعب. والحق أن العربة العتيقة كانت تقدم مغامرة

مغرية. فالمحرك اللاهث ورائحة البانزين المدوخة والوجوه الغريبة خلف الزجاج - كل هذا كان عالماً، يسير على عجلات.

ولذلك هرول الصبيان حالما تحرك الباص مرة أخرى،

بررر اوم، بررر اوم،

مثل الشياطين وراءه، ضاحكين وملوحين بأيديهم، كما لو أن الباص قد جاء أصلاً من أجلهم إلى هنا، حتى يدعوهم إلى حفل رائع، يقام خلف الجبال والقرى الصغيرة، في الجانب الآخر من عالمهم هذا. وبالطبع تخلفوا في النهاية، اختفوا داخل سحابة من الغبار، بينما كان صندوق الصفيح يتعثر لاهثاً فوق الأحجار والحفائر.

وساوس حمير

تكرب الهاربين

استندت الأم، منقبضة القلب إلى النافذة، خشية أن ترى في اللحظة التالية زرافات من الفلاحين فوق حميرهم المغبرة، يظهرون فجأة في الأفق، وانتظرت مجيء المطاردين، بعد أن يكونوا قد انحدروا من الجبال ركوباً -ترب، ترب، ترب-، بقبضات مرفوعة، مثل الهنود الحمر، وبصراخ مرعب، إلى الأمام، إلى الأمام، وراء العائلة الهاربة!

ومع ذلك ظلت هذه الرؤية عند الأم المتخوفة مجرد كابوس. فلحسن الحظ يظل حتى الباص الصدئ باصاً ويسير أسرع من أكثر الحمير نشاطاً. آه، لو أن الله يمنح الباص ما يكفي من القوة ويقوده بأمان، بحيث تنتهي الرحلة بخير - كان هذا هو أمنية الأم.

«يا كريستوفروس المقدس

أيها الشفيع الحامي للمسافرين

يا أبانا الذي، سلاماً يا مريم»

وبدا أن صندوق الصفيح قد استمع إلى ذلك. فقد كان عليه، هو عاثر الحظ أن يتحمل الكثير من الأعاصير: الأثقال التي لا تتناسب مع عمره المتقدم، وأيضاً بعض المزاج السيئ للمسافرين. وبالإضافة إلى ذلك كان صدئاً، مع الأسف، صدئاً ومغطى بجروح لا تحصى، وهذا يعني أنه كان من دون لون تقريباً ومثخناً بالأورام. كان الباص «مركباً» بطريقة رديئة (وهو تعبير لا يستخدمه الحدادون فقط وإنما السواق أيضاً، عندما يتحدثون عن إطاراتهم التالفة) ومتصلب الألواح، لأن اللوالب الصدئة تماماً بسبب الروماتيزم المصابة به، أو لأي سبب آخر لم تعد قادرة على التخفيف من الصدمات. زد على ذلك أن الباص لم يكن يمتلك حتى مزمّراً نظامياً، يجلب له الاحترام.

الحسنة الوحيدة في الأمر كانت هي أن الباص بعد كل هذه السفرات الكثيرة بين القرية ومدينة الدكاترة كان يعرف طريقه على أفضل ما تكون عليه المعرفة، حتى إنه لم يكن يحتاج تقريباً إلى يد تقوده. أما إرغامه على النشاط فلم يكن ليؤدي إلى شيء، إذ يزداد عناداً. كانت عجلاته تدور وتدور، ولا شيء أكثر من ذلك. بل إنه كان يغضب أحياناً ويرفض مواصلة السير، إنه الوعي بالذات بعينه. مثل حمار في آخر المطاف. ولم يكن ينفع إذ يحدث هذا سوى:

الهبوط، كل شيء إلى الخارج!

ولم يكن الباص ليلين إلا بعد أن يقوم الركاب بالدفع وأن يثبت السائق كامل مهارته. بعد تردد واصل الباص أخيراً سيره، بطيئاً بالطبع، ولكن مع تمالك للنفس، مستسلماً لقدره.

«حمار... حمار»،

لم يتلعثم بذلك هو وحده، وإنما أيضاً الحاكم المقبل، في حين كانت الأم لا تزال تتطلع إلى الخلف، بسبب الخوف من المطاردين المتعطشين للانتقام فوق حميرهم.

(وبالفعل يروي كتبة التاريخ فيما بعد عن ركوب الحمار إلى معيد الدكاترة: الصغير وأمه فوق السرج، والأب يسير على رجليه إلى جنبهما، وهو يشق الطريق بغصن هش مزهر).

«كل منطقة زراعية تقدم ما عندها. وهي غير ملزمة بأكثر من ذلك. فالينتيخو تعرض أفضل أنواع الفلين للبيع. ألغارفا تمتلك الشمس والرمل. اللآلئ تأتي على ما يبدو من أنغولا، الذهب والحروب من أمريكا. هناك مناطق تنتج النبيذ وأخرى تفيض بالأحجار واللاجئين. أما المدينة التي قصدتها العائلة الفلاحية فكانت تنتج الدكاترة - وهو أمر لا يشار إليه بالطبع في كتب الجغرافيا. ليكن ذلك معروفاً عندك يا ريتا.

وجد الأب والأم والابن أنفسهم مرة أخرى وسط شوارع قديمة وضيقة، لا تحصى، كانت ثمة أقواس حجرية، ورموز عائلية على بعض الأبواب. وكانت هناك كنائس صغيرة أيضاً، بل وكثيرة. وقسس، قسس، قسس ومرة أخرى قسس، وبدا أن كل ما عنده أرجل هو قس. من خلف كل سور حجري كان يبرز واحد منهم، وعند كل ضوء يشعل يظهر آخر. كانوا يشبهون قططاً، تخرج من العتمة بقفزة واحدة.

النساء كن قليلات، أقل من القليل. ولأنهن قليلات كانت المدينة تحاول تطييب مزاجها عبر قطعان من الصبيان الصغار الذين كانوا يزدادون جسارة مع النبيذ الأحمر الذي يجرعونه ويزعقون بالألفاظ النابية بأعلى أصواتهم في المنطقة. كان هؤلاء الصبيان يرتدون الملابس السود والجبب التي تجعلهم يبدون مثل القسس، على الرغم من أنهم كانوا طلاباً. وأغرب ما في الأمر هو أنهم كانوا إما بسبب ندرة النساء أو الخوف من البروفيسورين

يهزأون باستمرار بعضهم من بعض، حيث يمزقون بالمقص جبب رفاقهم ويجزون شعر الضعفاء منهم، بالإضافة إلى ألف ألعوبة أخرى. وفي مثل هذه المناسبات كانوا يطلقون صرخاتهم الحربية:

«إف. آر. آ... فرا!»

«إف. آر. ي.. فري!»

«إف. آر. آي.... فراي!»

وهكذا استنفدوا كل حروف الأبجدية.

بعيداً في الضياع، حيث لا أحد يتسكع وفي يده مقص، كانوا يغنون لاجتذاب النساء. أواه، كان ذلك يمزق نياط القلب. كانت تُسمع أنغام رقيقة، تصدر من قيثارة تتأوه وترتعش. كان يسمع صوت يترنم، مثل عصفور مخصي، زائل هو القمر، زائل هو العسل، وغني عن القول في الواقع، إنه كان على العائلة الفلاحية أن تشير إلى هذا بصورة خاصة.

في مدينة الدكاترة!

في الزوايا وعند البوابات حوصر الغرباء الثلاثة من قبل باعة من كل الأصناف.

«أنتم أيها الدكاترة!»

كانوا ينادون عليهم، دون معرفة أنهم ثلاثة فلاحين هاربين: الأب والأم والابن غير المعروف بعد. وهو أمر كان ينبغي عليهم أن يعرفوه. كان بائع الكتب القديمة يطري المخطوطات الممزقة القذرة كما لو أنها إصدارات جديدة، وكذلك رؤوس الموتى وبقايا الهياكل العظمية الأخرى: «هلموا أيها الدكيترون!»

وكان الخياط ينادي «جيب» وهو يضع شريط القياس على العنق. وأشار صاحب مطعم إلى لوحة أسعاره: «هذا هو بنسيون - مالغادا، يا سادتي الدكاترة. نحن في خدمتكم دائماً. نحن في خدمتكم دائماً».

وفي اللحظة ذاتها سمع المرء نداء الغسالة التي ظهرت لتوها في الشارع، وهي تحمل رزمة الغسيل فوق رأسها، نداءها الصارخ الناجح الذي كان يجعل البيوت تهتز: «أووو ز ز دوو.... أيها الدكاترة: هاتوا كل ما ينبغي أن يسلم إلى مغسلة سليمة!»

دوت الصرخة، مخترقة المدينة، بحيث كان لا بد معها من أن يصاب السكان، ذوو الملابس السود بالجنون.

مكتسحاً من قبل طوفان من القسس والطلاب، غارقاً في رائحة الزيت المنبعثة من المصابيح المشتعلة ومواجهاً تحيات الباعة عبر الشاب الريفي إلى الشوارع الجانبية والأزقة الصغيرة وتسلل إلى الماضي، إلى الظلمة. حتى الكاتدرائيات نفسها بدت له مخيفة ومرعبة. كانت القرون تثقل عليها، بعد أن صلب على نفسه واصل السير في طريقه. سار وسار حتى بلغ ميداناً مهجوراً، يقف فيه مصلوب هائل الحجم. توقف هناك: محطة أولى. ركع على ركبتيه، كما ينبغي عليه أن يفعل وصلى من أجل التوفيق الكثير في دراسته ومن أجل قوة الذاكرة والتربية الذاتية.

صلى جيداً وفي لحظة مواتية، إذ ما من أحد كان يصف المصلوب بشيء آخر سوى المسيح الدكتور. لم يكن هذا ليؤخذ فقط من اللوح المثبت: «الجامعة حكمة الجميع»[1] وإنما ليعترف أيضاً بالإكليل، الذي كان لأشواكه عدد معين: كانت الأشواك بنفس عدد الأشكال البلاغية. كان ثمة مسمار من ذهب منغرز في اليد اليمنى، وهو يعني التعاليم، وفي اليد اليسرى كان مسمار من فضة، يرمز إلى النظام الأساسي. وفوق إحدى أذرع الصليب كانت جبة نموذجية معلقة، دالة على أنها توفر أفضل حماية لكل من يقبلها، ما دام طالباً في الجامعة أو طالب بكالوريا - وهو أمر يقتصر عليهم وحدهم.

وهذا هو بالذات ما فعله الصغير الآن، فقد قبل الجبة. وبعد ذلك بدأ ومعه والده وأمه إلى جانبه بالصعود إلى أعلى نقطة في المدينة، وإذ بلغ أحد الأزقة الجانبية الصغيرة جداً هاجمه لصوص الشوارع من دون أي مراعاة

1- الجامعة حكمة الجميع: وردت في الأصل باللاتينية.

بالمقصات. أعطى والديه إشارة بألا يرتعبا، ثم أحنى رأسه مخذولاً. جزوا شعر رأسه فأصبح أصلع. محطة ثانية.

«إف. آر. آ... فرا!»

إف. آر. أي... فري!»

ثم واصل السير في طريقه الذي كان يزداد وعورة باستمرار، إذ كان عليه أن يصعد بطريقة عمودية تقريباً، منتهياً إلى أزقة ضيقة، تضج بأشخاص مقنعين، وفجأة ارتفعت أمامه بناية ضخمة، بدا أنها دير، إذ إن برج الأجراس وأروقة الدير كانت مبنية من حجارة قديمة. هدوء - لأن هذا كان هو الهدف النهائي، الجامعة، كما استنتج صبينا.

جالسين على مقاعد عالية ذات مساند.

استقبله

الأساتذة بملامح متجهمة

ترى من هو هذا؟

بدا أنهم يسألون. ومع ذلك لم تسمع أي كليمة مهموسة من أفواههم، ولم يكن لينتظر أن يسمع المرء أي واحدة أبداً، لأن هؤلاء الأساتذة لم يكونوا يسمحون أيضاً لأنفسهم أن يستشهدوا أبداً بأشخاص أو حقائق، لم يقتبسها الأساتذة الراحلون، وبالتأكيد مع الاحترام الذي يتطلّبه المقام.

كانوا يرتدون المسوح السود ويحملون إلى هذا الحد أو ذاك المطارف ذاتها التي يحملها الأحبار الكبار - حليقة تماماً كانت وجوههم الغبراء في لون الرماد، ومترصدة عيونهم الثعلبية الباردة، هكذا كانوا يتربعون عالياً فوق عروشهم. مثل كرادلة حكماء فوق إفريز كنيسة. كان كل واحد منهم يحمل في يده شيئاً يشبه عصا المطران، ولكن ينقصه التعرج المذهب، ذو الشكل اللولبي ويضع على ركبتيه شيئاً يشبه قلنسوة الكاردينال، لا يناسب سوى رأس أكثرهم علماً وليس مثلاً رأس

س من الطلبة. واحد من الذين كانوا يتسكعون هناك تحت ويحفظون المخطوطات عن ظهر قلب.

«باتيتي... باتيتا... لا شيء
سوى التسعة.
باتيتي... باتيتا... لا شيء
سوى التسعة».

وكان معنى ذلك أن المرء يستطيع أن يقرأ الكثير من اللاتينية في تلك البناية -على الأبواب، باتيتي، وفوق الجدران، باتيتا- وأنه ينبغي على المرء أن يتحدث دائماً، مستعيداً ذكرى الأموات، المثال المنجي للأموات، أسلافنا.

«من أجل مجد الله»[1]

وبالتأكيد مع الاحترام الذي يتطلبه المقام دائماً.

من دون إضاعة وقت أكثر، انسحب القروي الصغير إلى كتبه حتى يتعلم بهذه الطريقة كيف يفكر وكيف يصوغ الجمل التي كان يفترض أن تجعله مشهوراً بين الدكاترة. كانت لغة صعبة تلك التي وجدها أمامه ولكن إتقانها كان ضرورياً، لأنه لم يكن يفهمها أحد سوى الأساتذة والأموات. درس وعكف على القراءة حتى بدا شاحباً تماماً في النهاية.

والآن، حيث إنه كان قد شغل نفسه مبكراً بالكلمات والاستدلالات المنطقية، توقع الكثيرون منه شيئاً لافتاً للنظر: ولكن أتراه كان قادراً على تحقيق توقعهم؟ الدكاترة أومأوا برؤوسهم من علياء كبريائهم، لأن طريقته في الحديث كانت تشبه طريقة كتبهم القديمة التي درسوها، بل إنها بدت لهم أكثر كمالاً، كما القضاة والكتبة. لقد أعجبوا، هم الذين اعتادوا على انتقاد الفقرات والفصول، بطريقته في أن يستخدم بمثل هذه الجزالة ريشة الكتابة البيروقراطية. حتى الرهبان أنفسهم، وهم في العادة أناس مختارون، فتحوا

1- من أجل مجد الله: وردت في الأصل باللاتينية.

عيونهم مأخوذين: هذه الجمل المنمقة جداً، التي لا تتضمنها إلا الخطوط المزخرفة برسوم الكتب - من كان يقدر على أن يتجاهلها؟ أجل، لقد أدرك أخيراً حتى قادة الجيوش الغبطة العامة وفكروا: ربما، ربما... كل المظاهر تدل على أن الأمر يتعلق هنا بعبقري من الطراز الأول. ولذلك نصب حاكماً.

القسم الثاني

المملكة

في ذلك العهد اهتزت المملكة بسبب البرد والمصاعب. فانتقلت إلى ساحل البحر، ما من أحد يعرف بدقة لماذا، ولكن يفترض بسبب الجوع. جاء الجوع من أعماق البلاد وكنس كل شيء أمامه إلى المحيط.

الفلاحون وحدهم أفلتوا من هذا الموكب المجازف، إذ يبدو أن مِعَدَهم كانت قادرة حتى على هضم الأحجار. لقد أنشب الملعونون أظافرهم في الأرض مثل الحساسين، بل إنهم عضّوها بأسنانهم، شادّين أنفسهم إليها. زحفوا داخل مغارات الجبال وشقوقها حتى يدعوا العاصفة تمر بهم، مثل كائنات متحجرة أو قطع من الصخر. ثم عادوا مرة أخرى إلى أعمالهم، إلى الزرع الذي لا ينبت إلا في الأرض، وإلى الغلال التي انتزعت منهم. كانوا قد تعودوا العواصف، إذ الجوع خبزهم اليومي.

أما الباقون الذين لم يفلحوا في تجنب غضب العاصفة، فقد حاولوا الهرب للنجاة بأنفسهم، عبر القرى والسهوب، عبر مزارع الكرم والدوائر الحكومية، قاطنين مرة في هذا المكان ومرة في ذاك، إلى أن وجدوا أنفسهم ذات يوم، بعد أن أعياهم التعب تماماً. عند البحر وهكذا تساووا جميعاً في التهام سراطين البحر أو أنهم فعلوا ما تفعله القواقع الدنيا: متعلقة بالصخور تحمي نفسها من البحر. ومن هنا جاء اسم «مملكة القواقع الدنيا» الذي يطلقه الجغرافيون على هذه البلاد، للتغزل بالحيوان الأكثر تواضعاً بين كل الحيوانات البحرية، والذي هو مجرد أمعاء وقشرة (للتغزل به بالفعل؟).

«عندما يضرب البحر
الصخور،
ينبغي على القواقع الدنيا أن تدفع الثمن».

ذلك لأن القوقعة الدنيا مخلوق (وهي كذلك)، بل إنها مخلوق على حافة الخلق، بائس وضئيل، حيوان يقتات على الماء والملح، على «عصير» الأحجار أو على المعجزات، - ذلك لأن القوقعة الدنيا إذن -من يعرف ذلك بحق الله!- مخلوق، فإنها تمتلك بطريقة لا يمكن التعرف عليها على وعي الذين لا اسم لهم: فهي تفكر ولكن دون قدرة على الكلام وهي منطوية على نفسها تماماً. وهي إذا كانت قد أدارت ظهرها لليابسة فإن الذنب في ذلك يتحمله الدكاترة في أعماق البلاد (أولئك الذين يلقبون بالدا-ليين) الذين عذبوها بثرثرتهم، بحيث إنها ضاقت ذرعاً بهم وعمدت إلى الهروب. وباعتبارها من سكان الساحل أخذت تمضي الآن أيامها مثلما يفعل المحيط في لعب الأبدية، مدمدمة مع نفسها المرة تلو الأخرى مثلها المحبب إلى نفسها: «عندما يضرب البحر الصخور، ينبغي على القواقع الدنيا أن تدفع الثمن».

حتى الأجنبي القادم من مكان قصي يستطيع أن يؤكد أن هناك الكثير من الحقيقة، يكمن في هذا المثل. فعندما تشن في الممالك الأخرى الحروب أو تعلن أسعار جديدة، تهب ريح قارسة، حيث تدفع القواقع الدنيا وحدها الثمن، على الرغم من أنها لا تتحمل أي ذنب في ذلك، وعندما يترك الجبليون كهوفهم تعرف القواقع الدنيا أنها ستكون مرة أخرى حاملة الآلام، ولهذا رأت نفسها مضطرة للعصيان، رافضة أن تلقي بنفسها في البحر. نعم، وحق الله!

بعد أعوام كثيرة، كثيرة تمكن أثناءها الفلاحون الناشبون أظافرهم في الساحل من جمع الكثير من التجارب، أفلحوا أخيراً في تثبيت أقدامهم، جذورهم العشبية، اتجهوا كلية وبكل مواظبة إلى مراقبة الغيوم أو أي شيء قد تكونه. وبسبب قلة الغذاء أخذوا يعضون على شفاههم ويلوكون الأفكار التي تكون قد جاءت بها ريح البحر («عندما يضرب البحر الصخور..»)،

حيث هرموا قبل الأوان، بعد أن تغضنوا بسبب التحديق الطويل في الضفة الأخرى، إذ لا يبدو محتملاً أنهم قد ولدوا أساساً هرمين، وبينما كانوا يحدقون في الغيوم، في نجمة الهند أو في موجة واعدة حدث ما يلي:

بدأ غزو الدا-ليين

«إلى الهجوم!»

كان الذين زحفوا محاربين قادمين من أعماق البلاد، أبناء جبليين، جرى تعليمهم بدم بارد من قبل أساتذة مدينة الدكاترة. مرتدين ملابس قضاة ومكتبيين وغلمان كورس أو رعاة فقراء عاصروا العاصمة، اقتحموا المكاتب، اعتلوا النقاط الاستراتيجية المهمة، ولم يأخذوا مني، منك أي شيء - الأقدام دائماً، الأقدام دائماً! نحو القواقع الدنيا، ملوحين في الهواء بورقتهم، دبلوم البكالوريوس.

«بهذه العلامة سوف تنتصر!
بهذه العلامة سوف تنتصرا»[1]

مأخوذين على حين غرة من الكمين، استسلم سكان الساحل من دون أي مقاومة، لا سيما أنهم لم يكونوا يفهمون لغة الغزاة. بأفواه مفتوحة وأذرع معلقة كانوا مرغمين على أن يسمحوا للدا-ليين، وهم يرتلون مخطوطات ملقنيهم، أن يطلقوا عليهم بغضبهم الخطابي رصاصة الرحمة. كانت خطباً وخطباً مضادة، خطباً لا نهاية لها، لا يمكن أن يلقيها إلا الدا-ليون، يا صاحب الفخامة من دُبر ويا صاحب الفخامة من قُبل. لا أعرف عما إذا كنت واضحاً بما يكفي. وهكذا كان المرء يزداد حماسة.

«لقد تكلمت»

1- بهذه العلامة سوف تنتصر: وردت في الأصل باللاتينية.

لم تنبس القواقع الدنيا بأي كلمة. فقد كانت تلك لغة الدا-ليين، لهجة. مصطلحاً عليها بين حملة الماجستير، موزعة إلى فقرات، تكاد تجعل المرء يغيب عن وعيه. لقد استمعوا إلى ذلك صامتين وخرسوا. وفي أثناء ذلك، جمّلت المملكة نفسها بالمراسيم، بزيادات الضرائب، بزخارف التواقيع، بالجمل التي تلفظ بصعوبة، بالأوراق الرسمية -مبهجة بذلك المنتجين-؛ بالقوانين الأساسية، بالبلاغة، ولم يدم الأمر طويلاً حتى سميت بإقليم الدكاترة، لشعورها بالشكر تجاه المحتلين الذين كانوا يجوبون الشوارع جيئة وذهاباً والذين لم يكن المرء ليلتقيهم في المقاهي وحدها وإنما أيضاً في البيت، حاملين وريقتهم الموقعة في اليد، تلك الوريقة التي ترفعهم إلى مرتبة الدا-ليين. وإذا ما أولينا اهتماماً لحبهم للتعلم فلا بد من قول ذلك.

والآن وبسبب حبهم للتعلم كان تعبير الوجه عند هؤلاء المواطنين بارداً فخوراً (كما يقال، يا صاحب الفخامة من دُبر ويا صاحب الفخامة من قُبل). لقد أرغموا القواقع الدنيا على ارتداء الملابس الداكنة: فالحياة ليست مزاحاً في آخر المطاف. وفضلاً عن ذلك فإنهم أوضحوا أن الضحك يعتبر بعد الآن قناعاً للاحتقار والكلام معطفاً للجهلة وأن البهجة غلالة مضببة لعدم القدرة على التقدير. ينبغي على المرء أن يلاحظ هذا جيداً ويوجه نفسه على ضوئه، هكذا ختموا توجيههم، مع دال في الموضع الصحيح.

وبالتدريج كانت الأسواق السنوية والمهرجانات القليلة أساساً، التي لم يعد يذكر بها أحد سوى التقاويم وتركت الميادين الفارغة للذباب الخالي من الأوهام الذي يمكن أن يتخيله المرء. أما عدد أجراس الكنائس فقد تضاعف مرات عدّة، يا للمعجزة! قرع الأجراس، وهو زهر من الأرجوان واللاتينية، فقد نبت مثل بذور تحملها الريح فوق الجبال والوديان، ملتفاً حول المساكن.

بيم با... بيم با

وهناك في الأسفل على الأرض كان الجنود مع تشكيلاتهم يسيرون بثبات، واحد-اثنان، يسار-يمين، حيّ على الصلاة[1].

1- حيّ على الصلاة: وردت في الأصل باللاتينية.

وفي إقليم الدكاترة، حيث كان الجوع يسود كل الأماكن، وُعِظَ الناسُ بالقناعة، وهي قاعدة إضافية، أعلن الدا-ليون أنه لا مناص من اتباعها. وبالطبع فإنهم قد يكونون شُعيباً قنوعاً، يكاد لا يملك أي شيء، ومع ذلك وهذه هي النقطة الأخيرة، يمكنهم أن يكونوا أغنياء، هذه المسألة تتعلق بصورة كلية بالإرادة الإلهية الصارمة، ذلك لأنه إذا ما اغتنى أحد -هاوروك!- في هذا البلد بين ليلة وضحاها، فإنه لا يحقق ذلك بعرق جبينه وإنما لأن القدر المكتوب على الناس، قد قرر هكذا. وكان هذا الأمر يفهم على الشكل التالي:

ينص القانون على أن كل قوقعة دنيا، بغض النظر عن جنسها وقناعاتها، يمكن أن تصعد إلى طبقة الأغنياء، إذا ما لعبت اليانصيب. وهكذا لعب كل واحد، كما هو متوقع. لقد لعب الناس الذين لا يملكون شيئاً والذين نفدت نقودهم، لقد لعب المشلول والصعلوك، بل وحتى الأعمى الذي كان يتلمس الأرقام. كان نصف الأمة يبيع النصف الآخر بطاقات اليانصيب. وكانت النتيجة ظهور مملكة، تباع فيها الفكرة المجردة ويتاجر فيها بالأمل المبهم.

هذه الطريقة في قسر الحظ أدت إلى اجتناب الحروب التي كانت تثار في كل وقت، بسبب المال الشائن، ولذلك كانت هي الأذكى، لا تنظر باحتقار إلى جارك، فقد يحالفه الحظ، بضربة قدر وهو أمر ينبغي على كل مواطن أن ينتبه إليه، وكان هذا يعني، أن يُظهر موقف الاحترام الفائق في كل مكان أمام الآخر. وهذا يوضح (جزئياً، جزئياً فقط) لماذا كانت القواقع الدنيا تشعر بكل هذه الغبطة عندما يلمح بعضها بعضاً ولماذا كانت تعوّل هكذا، أن يحيي بعضها بعضاً بالكلمات.

«حيّاكم الله يا صاحب الفخامة،
أيها السيد، الأب الأكبر!»

حيث كانت ترفع قبعاتها مع إيقاع المارشات، يسار-يمين، حيّ على الصلاة، واحد، اثنان، يسار-يمين.

وفجأة صاح الدا-ليون «قف» عندما رأوا أن الوقت قد حان، خرس

كل شيء. وعند ذاك صعدت مجموعة من المبعوثين، مزهوة وفي بذلاتها الرسمية، مستغلة المفاجأة إلى الجبل، لاستقبال الحاكم. ولم يكن هذا سوى فلاحنا.

هبط، نحيفاً من التعلم الكثير، ولكن مُنوّراً، يرتدي ملابس معلم. لأنه كان هكذا.

ومع ذلك ظهر المتسولون
الطيارون أثناء عرض الدكاترة

استُقبل معاليه. المعلم الفلاحي والدكتور، بآلاف وآلاف من الأعلام والصواريخ النارية المؤ...زززة في المدينة. ألقى خطبة، بدت مدهشة بالتأكيد لمعظمهم. خطبة عميقة التفكير في كل الأحوال، بدأ بالحكاية المعروفة عن «قميص الإنسان السعيد»، تلك الحكاية التي يوسف فيها، كم هي مبهجة حياة الفقراء وكم هي شقية حياة الأغنياء. وبعد ذلك انطلق لتقديم معالجات مسهبة ومعمقة، استخدم استمارتين واخترق أفق المستقبل - والآن، كان لا يزال يتحدث بالطبع، قال هذا الشيء وذاك وهكذا، وفي الختام رفع ذراعيه عالياً إلى العناية الربانية ونادى.

«ليمنحنا الله رحمة القدرة
على أن نكون فقراء».

وعندما غادر منصة الخطابة وسط الألحان الموسيقية والتصفيق العاصف كان الدا-ليون يصرخون «أحسنت».

«عاش، عاش، يعيش!»
«الله مع حاكمنا!»
«لتعش السعادة الغامرة للفقراء!»

طيلة أيام كانت زهور البارود تتفتح في سماء المملكة وذيول الصواريخ

ترقن الغيوم. الكتب المدرسية امتلأت الآن بالحكايات التي تروي أمثلة حول كرامة الفقر وعن العذابات التي سوف تصيب الأغنياء في العالم الآخر من دون شك.

وهكذا فكرت القواقع الدنيا سراً، فقراء مثل فأر الكنيسة، نعم لهذا ولكن أين ظلت الكرامة في الواقع؟ ومنذ ذلك الحين انتشرت أمثلة معينة، حول القواقع الدنيا بالطبع، لأنها من دونها لا تتضمن أدنى معنى. كل ثانية كان يظهر مثل جديد، أكثر عمقاً من الآخر (اللحظة الأولى على الأقل): وكان بعضها من التطرف، بحيث إنه انتقل من فم إلى فم واشتهر، مثل ذلك المثل الذي يقول: «غني في اليد أفضل من فقيرين على السطح» والذي منع فوراً. كان ينقص بعد كل شيء، أن يسمحوا به فترة أطول أيضاً.

أجاب الحاكم عندما نقل إليه هذا المثل الأحمق أن الفقراء لا يستطيعون الطيران أبداً حول السطح. ولكن إذا ما طاروا فينبغي أن تكون عندهم نقود حتى يتمكنوا من السفر بالطائرات، وعند ذاك لن يعودوا فقراء فعليين، الأمر إذن هو قذف محض، وهو مشين أكثر، لأنه يهين طبقة المذلين الذين هم حملة الآلام دائماً في كل الأحوال.

لقد أثبت منذ الساعة الأولى لحكمه أنه لم ينس طفولته في القرية. فبدل أن يبني قصراً أو مبنىً فخماً اختار لنفسه كمستقر برجاً متواضعاً للغاية، يقع وسط حديقة للزهور، حتى يتذكر دائماً بيت عرابته الذي يقع عميقاً في الريف. رفض شلة العائلة والأصدقاء، كما كانت تتر - فه الاحتفالات وتجمعات الناس. ما من مكان، ولكن أقل من أي مكان آخر، في هذه المملكة بالذات، يمكن للرب أن ينظر من الأعلى برضا إلى الفخفخة، مهما كان شكلها. كان ذلك توضيحه.

ونظراً لأنه كان الآن دكتور دكاترة، فقد كرس نفسه بحمية شديدة للكلمات التي كانت موضع سره منذ طفولته. فما كاد يُنصّبُ حاكماً حتى بدأ بوضع خطة، تمكن المملكة من التحدث بلغة نظيفة، مبنية بصلابة ومفهومة من قبل الجميع. بكلمات أخرى، لغة الدا-ليين.

وقد فعل ما قاله. اندفع إلى العمل، طهر المراسيم والأوامر الإدارية، والصحف والمعالجات، وحقق نجاحات سريعة. الكلمات المستلة من العامية التي كانت أكثر تليوناً، ولكنها بدت بالنسبة له غير ملائمة، ذهبت إلى مزبلة النفايات، لأنه كان من الجلي أنها تنقط سماً بين السطور. أما الكلمات الأخرى التي كانت شبه منسية، لاختفائها عميقاً بين ثنايا الرقوق، فقد بعثت مرة أخرى. وقد أوضح هو أنه ينبغي على المرء أن يتقصاها ويحررها من الغبار وأن يجعلها متداولة بأسرع ما يمكن، وكلما أسرع المرء كان ذلك أفضل. وهكذا ظهرت كلمات كثيرة، كثيرة جداً، من أصل لاتيني أو يوناني نقي، لم تتضمنها رسائل النبلاء فقط وإنما الأوراق التقاعدية الضاربة في القدم، التي ظهرت في أريج القداسة.

باختصار، لأن المملكة كانت فقيرة الآن، أراد الحاكم إغناءها بالكلمات ذات المنبت الأصيل وخلق لغة عامة، تستطيع توحيد الشبان والشيوخ، الأغنياء والفقراء، القواقع الدنيا والدا-ليين. وقد تمنى له التاريخ في مسعاه ذاك الحظ الكثير.

ومع ذلك كان الرجال الأكثر نفوذاً في إقليم الدكاترة يقاطعونه باستمرار في زحمة العمل، طالبين منه النصح، ومفهوم أن ذلك كان يزعجه وبالتأكيد ليس فقط لأن ذلك كان يضر بإنجاز الأمة ولكن أيضاً لأنه كان يبدو في معظم الأحوال كما لو أن الناس ما زالوا بعيدين جداً عن التعرف على قيمة الكلمات في إقامة النظام وتكوين الفهم البشري السليم.

وهكذا ظهر فجأة بطريق التجارة الكبيرة - لكم كان ذلك مثيراً للآلام يا ناس، لكم كان ذلك مثيراً للآلام! ووجد الرجل نفسه غارقاً تماماً في الحيرة.

«لا أستطيع المواصلة، يا صاحب الفخامة.
حضرات المتسولين الأماجد
يسرقون النوم من عيني
بتوسلاتهم».

وعند ذاك هز الحاكم كتفيه، متأملاً في كلمة «متسول». أي متسول؟

وبذلك كانت المشكلة بالنسبة له قد اختفت من العالم. وقد أراد سيد التجارة الكبيرة أن يبدي رأيه في غير التقليديين. غير التقليديين.

«وحق الله، لقد وجد غير التقليديين
دائماً وسوف يوجدون دائماً، حتى
في أكثر الممالك ازدهاراً. ولذلك
اضطجعوا وناموا آمنين».

يمكننا أن نفترض أنه قد ظهر بعد المليونير النمسان القائد العام الأعلى، وطبقاً للعادة سرد تقريره في وقفة متصلبة، من دون نقطة أو فارزة:

«يا حضرة المعلم المجيد لقد خسرنا
معركة أخرى ضد الكفار فنحن
لا نعرف لا قوانينهم الحربية
ولا ساحة المعركة التي اختاروها -
هل أستطيع أن أنسحب؟

«لحظة، يا صاحب السعادة،
السيد القائد العام الأعلى...»

قاطعه الحاكم بهدوء نفسي كامل. ثم أوضح، رافعاً سبابته، أن أي معركة هي كفاح بين الجيوش المسجلة نظامياً، التي تمتلك شهادات تخرج ونشيداً خاصاً بها ووثائق شرفية. والآن طبقاً للمعلم فإن هذا التقدير لا ينطبق على الكفار، لأنهم ليسوا سوى عصابة من دون راية وزي. وتبعاً لذلك فإنه لم تقع أي معركة على الإطلاق، من وجهة النظر العسكرية على الأقل.

«التالي رجاءً»

لعل التالي كان وزير المالية الذي كان يتناطع مرة أخرى مع المشكلة الأبدية للضرائب.

«ضرائب أم هدايا؟»

سأل الحاكم، مصراً بعناد على الفارق (وأضاف إلى ذلك بوضوح أكثر أنهما أمران مختلفان).

وقف وزير المالية مرعوباً، وأوضح معاليه حتى لا يضيّع معه أي وقت أكثر: أنه لا يستطيع الموافقة على المزيد من الضرائب ولكنه يعتبر الهدايا أمراً جيداً. لقد أعلن عن صدور مرسوم حول الهدايا، وهو أمر لن يتخلف عنه سوى الأشرار وأعداء الوطن. وإن مثل هؤلاء الصبيان المغرضين -

«ينبغي أن تقص أجنحتهم».

خلق الله الصوت وأنشأ الإنسان الكلمة. ولكنه حالما أنشأها، تعلم كيف يدمرها أو يفسدها. مثال: انظري عندنا هنا شريط مسجل، إذا أردنا الآن أن نقتطع جزءاً معيناً -هكذا- وأن نلصقه في موضع آخر، فإننا نستطيع، وهذا شيء سهل نسبياً - أن نغير حقيقة الكلام المحكي. نستطيع أن نزوره، أن نقلبه، بل حتى أن نمزجه مع كلام آخر، مثل هذه العملية السهلة جداً، كما ترين تدعى مونتاجاً، ومع ذلك توجد أيضاً طريقة أبسط منها، ولكن أكثر تأثيراً في الجوهر، ياريتا، أجل كانت توجد!

كم وقتاً بدده الحاكم في الواقع من أجل معرفة كيف يمكن للمرء أن يتحرر من الكلمات غير المحبوبة على أفضل شكل؟ شهوراً، أعواماً؟ أجمل أوقات حياته، كما يقال، كان الجواسيس على هيئة قطعان يملأون الشوارع، مكلفين بالوشاية باللغة؛ جمعيات الإخوان الدكاترة كانت تغرق نفسها في كتب الملخصات، وآخرون في استمارات التبديل، وآخرون مرة أخرى في الثرثرة اليومية. لقد جرت تنقية طريقة الحديث عند القواقع الدنيا، وكانت آذان الوطاويط تتنصت على كل إنسان في العتمة الأكثر عمقاً. يمكن للمرء أن يتصور هذا.

ومع ذلك لم يشعر المعلم بالرضا من كل هذا. فمن أجل تحقيق نجاحات أفضل، أراد أن يتدبر طريقة، لا تخطئ أبداً، ومن أجل هذا الهدف انسحب هو وعدد من السحرة إلى حجرة، أوصلها بمصابيح صغيرة وكبيرة، ثم أقام

منشأة، ذات فروع كثيرة، ربطها بأضوية رقابة إليكترونية ونوابض توصيل من البلاتين، متاهة حقيقية. وبعد أن انتهى من ذلك أصدر أوامر سرية إلى الكومبيوترات الخالية من أي شعور، وعندما تصور أن الجهاز يقوم بمهمته فرك يديه: والآن سوف يصفر من ثقب آخر. وبعد ذلك دفع للسحرة أجرهم الموعود ثم قذف بهم.

إلى الشارع!

(أو أنه أمر بقتلهم، كما يرى بعض كتاب التاريخ.)

هذه الحجرة التي لم تكن حتى ذلك الحين سوى حجرة عادية متواضعة أصبحت معروفة تحت اسم:

حجرة تعذيب الكلمات

وفيها كان على الأفعال والأسماء والحركات وكل سكان القواميس المتبقين أن يعانوا أفظع العذاب. وقد قام طبقاً للخطة (التي ربما لا تزال موجودة في مكان ما، في أرشيف أو في ميكروفيلم في شفرة سرية) بتركيب آلة الجحيم بالطريقة التالية:

أ) تسجيل القراء (تصنيف أول) الذي يوسف بالتأكيد في «التعليمات العامة» كمحطة تسجيل، تتسرب من خلالها الكلمات داخل دورة وبعد ذلك كانت تصب من دون تردد في

ب) نظام الانتقاء التصاعدي، الذي يرمز إليه في الخطة بالحروف بي سي، حيث يتم وضعها مع كلمات أخرى، تقوم بمهمة المنقيات أو الكواشف، عبر هذه العملية كان يمكن للمرء استخلاص المرادفات والتفرعات الأكثر اختفاء لدلالة كل كلمة.

ج) نظام فحص النشوء والارتقاء الذي كان يبلغ تكميلياً عن الأصول العربية واليونانية واللاتينية أو أي أصول مشكوك فيها.

د) حجرات ألفا، بيتا وبيتا - 1.

كانت الكلمات الموضوعة تبعاً للأصل والدلالة، كما تنص التعليمات،

تمرر بعد ذلك عبر شبكة من القنوات التي تضيق باستمرار ضمن نظام الـ -3- حجرات، حيث تخضع للانضغاط والتوليف. وكان الناتج النهائي صوتاً ما، مقطعاً ما يسجل على

هـ) شريط تسجيل وبعد ذلك يمرر في

و) مركب الاسترداد، حيث تكون كل البقايا قد غسلت وصفيت، بعد هذا التنظيف توضع مرة أخرى مع بعضها، حسب الأصول، لتهبط أخيراً في

س) الفهرست الأوتوماتيكي.

هكذا بدت المنشأة بأكملها.

لم يكن من الممكن الولوج إلى الغرفة. وكان على القليلين الذين يسمح لهم بالاقتراب منها. وهم من رجالات المملكة ومن بينهم هذا أو ذلك من وسط النبلاء القادمين للزيارة أن يبقوا في القاعة المجاورة، حيث ينعقد دائماً مجلس فخامته، منتظرين هناك الحاكم. وهذا الذي كان حاضراً في الأساس منذ زمن طويل، كان موجوداً طيلة الأبدية. في الخلفية. أمام المنضدة في مقعد الشرف. واقفاً بصلابة مثل تمثال بالحجم الطبيعي.

التمثال المتكلم

مرتدين السواد، القبعة في اليد، كان رجال الحاشية ينتظرون بنظاراتهم الذكية أمام التمثال. ذلك الحاكم البرونزي كان يذكرهم بالدكتور الفلاح الشاب -التواضع والسلطة- الذي جاء من العدل ليثير دهشة المعلمين. صلب مثل صخرة، هكذا كان يحدق في البعيد.

بعض الزوار تلمسوه احتراماً وارتعبوا: فقد اعتقدوا أن المعلم يقف إزاءهم بتعبير وجه أكثر جدية واحتفالية، شقيق الدم، الأخ التوأم، الحاضر أبداً مثل صدى بعيد في نصف عتمة قاعة المجد. لنفترض أن الحاكم والمعلم يمتلك أخاً أو شبيهاً له -

أي زندقة سيكون هذا!

عندما ينفرد المستشارون ورجال الحاشية بأنفسهم في القاعة فإنهم ينتهزون الفرصة للتدرب على خطبهم في حضور التمثال. وفي هذا اللقاء الأول كانوا يتقافزون هنا وهناك كالغربان أمام الحاكم المصنوع من البرونز الصلب - مفتتح القرارات التي كان ينبغي اتخاذها.

«أيها التمثال المجيد،

المعذرة: أيها المعلم المجيد» هكذا بدأ محافظ الجزيرة المكونة من بيتين خطبته في القاعة الفارغة من البشر. ثم عرض قضيته القديمة قدم الدهر: كان قد رجا الحصول على إرسالية جديدة من النقود العظيمة، حيث قام الأهالي بسبب الجفاف الأخير بإتلاف القسم الأكبر من النقود المتداولة عن طريق قضمها؛ باختصار ووضوح، استنتج الحاكم، أنه أصبح من الملح جداً بعث الحياة في السوق.

وقد حدث ما يشبه ذلك مع القاضي. فقد اندفع يلقي خطبته الممتلئة بأناشيد المديح المستفيضة، ولكنه في اللحظة التي كان ينبغي عليه فيها أن يتطرق إلى الموضوع الفعلي تلعثم وتراجع منسحباً، بسبب حيرته، وقال متلجلجاً ع -ع- عفواً. وفكر أن الحظ قد واتاه مرة أخرى.

ومثلما حدث له حدث لكثيرين آخرين. وكذلك أيضاً للمبشر ألتا - كروز، المعاني في النجمة الرمادية، وهو داعية غوامض، كان يعتقد بجد، أن التمثال قد يكون حياً نوعاً ما. وقال في نفسه، ربما كان قد بورك خفية. مضيفاً عينيه، بحيث إنهما آلمتاه من الإجهاد، حاول بإصرار أن يكتشف ما إذا كانت العبقرية تتبدى عبر تعبير ما في الوجه البرونزي. وكان من رأيه في النهاية أن التماثيل الحية ليست شيئاً جديداً بالتأكيد. ليتذكر المرء فقط معجزة أعمدة الملح في التوراة. أم كان هذا خلطاً؟

إذا كان المبشر بنظرته الزائفة مهووساً أيضاً، لاقتباس الأساطير المقدسة فإنه لم يكن في هذه الحال بحاجة على الإطلاق للعودة بعيداً إلى الوراء. فقد كان في إمكانه الاستناد حتى إلى الأحداث الأكثر قرباً. مثلاً إلى الحادثة التي وقعت مع الدكتور المحارب الذي وجد نفسه فجأة. أثناء الإعداد لمؤامرة،

أمام التمثال البرونزي. مذهولاً قصد الحاكم مباشرة، ليكشف له كل شيء، والآن لكم أن تستغربوا أيها الصناديد من أن الاعتراف قد أدلي به هنا بالذات، بين هذه الجدران الأربعة. أجل، لقد حدث هذا منذ وقت قريب ترى ما الذي قاله التمثال له؟

هكذا كانت تمر أوقات الانتظار الطويلة في القاعة المحاذية لحجرة الكلمات. فمن الغرفة المجاورة كانت تأتي تأوهات الأصوات الميّتة والبقايا اللحنية المقبضة، على الرغم من أن الجدران كانت صلدة. كان رجال الحاشية يشعرون كيف تترجرج الغرفة ويكادون ينفجرون من الفضول - ولكنهم كانوا في النهاية ذوي أخلاق ويسيطرون على أنفسهم. كانوا خدماً مخلصين، صامتين، والأكثر من ذلك أن ما كان يشغل بالهم الآن وقبل كل شيء هو خطبتهم.

وعندما ظهر معاليه الحاكم أخيراً، جلس على كرسي الرئاسة، محروساً من قبل أخيه البرونزي الواقع في الخلف وافتتح الجلسة بالكلمات.

«المعرفة هي سلطة الحاكم!
أيها السادة، لنأتِ إلى
جدول الأعمال!»

د.... كتوررر!

غالباً ما كانت تظهر آراء تتميز بعدم الوضوح حول الدا-ليين الذين كانوا يعيشون في ذلك الزمان في المملكة. بعضهم كان يرى أنهم جنس مخنث، «أنتج نفسه عبر التأرجح بين المخطوطات وكتاب قواعد الدين المسيحي،» (الأخ بانتاليا وداس بولاس)، فيما اعتبرهم آخرون فرعاً من سلالة أبناء الزنى المنحدرين من الملك إل - لافرادور الذي أسكن القرن الثالث عشر (أو بعد ذلك؟) بأطفال من آلاف الأرحام، وآخرون مرة أخرى، المختصون، لم يترددوا طويلاً وإنما أضفوا على الدا-ليين صفات نوع، يرتبط أيضاً ضمن تعريفهم بالقواقع الدنيا على الساحل وفي أعماق البلاد، حيث اكتسبوا بسبب تماسهم بالقانون والإدارة عيوباً وتصرفات نموذجية.

ولكن ما من شك يحوم حول الأمر من أن الـ-د، أ- ل-د، دي، د-، د - السيد، السيد د، السنيور د أو السيد دوم، وهذا يعني أيضاً الـ-د، الذي ظهر في إقليم الدكاترة، كان ينحدر من الريف. وهو يميز نفسه بسهولة عن القواقع الدنيا الأصيلة، عبر سلوك واع تماماً، عبر الألوان الداكنة التي كان يفضلها في ملابسه، ونشيده الشاذ الذي لا يشبه سواه والذي تقاطعه نبرات صادرة من البلعوم:

د.... كتورررر....

ولأنه لم يكن في المملكة سوى معلم واحد، يقدر على كل شيء ويأمر بكل شيء، فقد حاول كل واحد من الدا-ليين أن يجعل الآخرين يعتقدون، أنه الأهم بعد الحاكم، ومن هنا جاء الشعار المشهور:

«يا صاحب الفخامة، أنتم لا تعرفون
مع من تتحدثون؟»،

والذي كان يمكن للمرء أن يسمعه باستمرار في الشارع، في إقليم الدكاترة.

الأطفال وأحفاد الفلاحين الذين صاروا أغنياء، ظلوا دائماً فلاحين حتى وهم أغنياء، مهما أرادوا التظاهر بذلك. فقد كانت العلامة الفارقة لأبناء الفلاحين الذين استقروا في إقليم الدكاترة هي تحبيذهم لكل الفعاليات الوظيفية التي تتطلب الجلوس، وهذا يعني حقل عمل المكاتب والوظائف الأخرى التي يسودها جو بيروقراطي شديد، تتدحرج فيه الحياة، طبقاً لقانون الطبيعة، حيث ينهمر مطر الضرائب دورياً.

كانوا يسيرون بطريقة احتفالية، دبلوم البكالوريوس في اليد، الدبلوم الذي كانوا يستخدمونه كغشاء نابض في جهازهم الهضمي والنطقي، ولكن أيضاً كزائدة دودية، تحفر لهم مثل آلة ثاقبة طرقاً تحت باطن الأرض في كواكب المراسيم.

وقد ثبت اليوم تاريخياً، أن الدا-ليين كانوا يملكون غريزة قطيع بارزة. فعلى الرغم من حسد العلف عندهم ونهمهم فقد طوروا روحاً جماعية

متميزة في الكفاح ضد القواقع الدنيا الأكثرية التي كانوا يسيطرون عليها بكل مهارة، بمساعدة نشيدهم البلعومي. كانوا يوقعون بـ د... دائماً د.. سواء كان الجو ممطراً أو مشمساً، ولم يكن في مقدورهم الاستغناء عن هذه الإشارة التي كانت ترتبط بأسمائهم. سواء كانوا على التليفون أو عند الخياط أو داخل العائلة، أو عن الحروف الأولى المزركشة على بيجاماتهم. حتى في نبرة صوتهم كان يرن حرف الدال. وعندما كانت القواقع الدنيا المنحدرة من طائفة المتسولين الطيارين تقوم بتعميد نفسها بشراً بين الأقواس فإنها كانت ترمز بذلك عمداً إلى عرف، يتميز به الدا-ليون. في هذه النقطة لا يوجد أي شك.

بضربة عبقرية
ينقذ الحاكم جزيرة غارقة

ومع ذلك فإن نقيصة النظام كانت تكمن في ضعف الدا-ليين، فما إن هبت عليهم عاصفة عاتية، حتى اختل كامل نظامهم. وللدقة فإن ذلك لا بد قد حدث عندما قام البرابرة القادمون من الجهات الأربع باحتلال تلك الجزيرة الواقعة في نهاية العالم، والتي كانت تعتبر الأصعب مراساً في المملكة كلها. على الأقل هناك ما يكفي من الناس الذين يحملون هذا الرأي. كان الأمر هكذا: مأخوذين بغريزة إجرامية، هبط البرابرة برماحهم المسمومة إلى الجزيرة. مطلقين صرخاتهم الوحشية دمروا كل شيء واجههم في طريقهم، حيث لم يبق حجر فوق حجر آخر. فقد أخذت الجزيرة بالقوة الغاشمة. يا له من رعب! وفي ارتباكهم تقافز الدا-ليون المباغتون مثل ألف شيطان صغير، في حين كان الغزاة وهم ذوو عواطف فجة بطبعهم، يستوطنون المكان، جالبين معهم أسلحتهم وحقائبهم وديانتهم (؟)، وليكن الله معكِ، أنت أيتها الجزيرة الجميلة، حيث لا يوجد أي مفر. عيون رجال الحاشية التمعت من الغضب وأقيمت القداسات -ليكن الله معكم- ومن أجل تقديم السلوى ألقيت الخطب التي دعا فيها المرء إلى

الانتقام!

عندما دوى فجأة وسط الحيرة صوت الحاكم في الميدان المخصص للاجتماعات العامة، حيث احتشد جمهور من محبي المعارك الكلامية:

«ماذا هناك أنتم، أيتها
المخلوقات المذعورة؟»

تهاوى الدا-ليون خجلين وأنصتوا بفضول إلى ما أعلنه الصوت:

«الجزيرة لم تضع،
إنها تظل لنا!»

وتضاعف الفضول.

«إنها الآن أقرب إلينا أكثر من ذي قبل!»

وعند هذا دوّى التصفيق، حيث هنأت الألوف المؤلفة من المواطنين المجتمعين في الميدان بعضها بعضاً، بينما كانت تتساءل في أعماقها: كيف هي أقرب؟ أقرب من القلب فعلاً؟

وفجأة أشار الحاكم من علياء المنصة إلى بيتين في النهاية الأخرى من المدينة: هناك. وإلى هناك انسحب الرجال الأكثر بروزاً: محافظ المدينة المنكسر، النقيب المهزوم، ولكن غير المقتنع بعد، العراف، القاضي وبضع عشرات -لنقل- من الأهالي الذين كانوا أسرع عدداً وأفضل إبصاراً من الآخرين. هناك هي الجزيرة الآن. وقد أضاف إلى ذلك:

«ليعرف الجميع ذلك»،

ثم انسحب بعد ذلك وتحصن وراء قلعته، وراء الكلمات.

عرف الجميع ذلك وأصبحت الجزيرة منذ ذلك الحين في المدينة، وليس هناك حيث شاءت الجغرافيا ذلك. الحدود: في الشمال ميدان الينبوع، في الجنوب والشرق حديقة الحيوان، بتنوع مجموعتها الحيوانية، في الغرب ساحة كرة القدم وقطعة بحر. البحر البعيد، المسرف، الوقور.

وكان هذا يعني الآن، انتبهي أيتها المدارس، انتبهي أيتها الكتب التعليمية، إنه يجب أن يصحح:

عدد السكان: الذي أصبح بعد الآن ثلاثة وثمانين مواطناً،

الطقس: الذي لم يعد رطباً كما كان فيما مضى، و

التقسيم الإداري: قسّمت إلى مديريتين، بحكم ذاتي، مع المناطق المناسبة لها التي حددت بالطوابق المختلفة للبنايتين. والأكثر من ذلك أنه كانت هناك منطقة حرة. وهي مكونة من الغابة الكثيفة الكبيرة ومرأب وأرض خلفية قاحلة (كانت تتطلب وضع حدود لها) ومنطقة خارجية، مكونة من رصيفين، كان يعمل فيها المبشرون ولجنة حماية الحيوانات البرية والفرق الصحية العاملة ضد مرض النوم.

اعتماداً على هذا الوصف الموجز يمكن للمرء أن يكوّن لنفسه تصوراً عن الحضارة في جزيرة البيتين التي لم يكن يحيط بها البحر من كل الجهات مثل الجزر الأخرى وإنما تقع وسط المدينة -لؤلؤة متألقة، راية صغيرة في الذي لا يقاس. ولكن من أجل أن يظل كل شيء على ما كان عليه من قبل، بل والأكثر من ذلك: من أجل أن يظل الانطباع قائماً، كما لو أن الجزيرة مطوقة من قبل البحر، أمر الحاكم بأن تزين الغرف بصور مناظر ضخمة من تلك المديرية السابقة، حتى لا يشعر السكان الأصليون بالغربة، بسبب التغيير. وقد أقام أكواخاً من القش- اثنين في كل غرفة وحول الممرات عن طريق العشب الاصطناعي وأشجار النخيل البلاستيكية إلى طرق غابات. ترى ما الذي كان ينقص بعد ذلك؟

آه، أجل، العصافير، السعاة الفرانسيسكانيون،[1] التي تجعل الطبيعة توحي بالبراءة، ترى أين كانت العصافير بالفعل؟ الجواب: هناك، حيث ينبغي لها أن تكون فوق الغصن. كانت صُنعت من الخزف مع قاعدة متحفية

1- الفرانسيسكانيون (في الكاثوليكية): أعضاء طائفة من المتسولين.

وريش من النايلون، كما أحيوا الغصن بقرد محنط. وعلى الجدران علقت الحشرات التي تضيء في الليل؛ وفي الزوايا وضعت أفاع ملتفة بعضها على بعض. أما ما يتعلق بالأصوات فقد كان طبيعياً، بحيث إنها كانت تستطيع أن تدهش تماماً أي باحث. كل مكان هناك، وهو منقول على شريط تسجيل، كان يبدو أصيلاً بطريقة مضللة، عواء الضباع، زمجرة الأسود المتكبرة، ضوضاء القردة، زقزقة العصافير وخرير الجداول؛ وفي البعيد كانت تسمع طبول. وهذا هو الأهم.

وقد اعتبر ملزماً لكل واحد من السكان ارتداء إزار عند التجول في البنايات والتحدث بلهجة المنطقة المعنية. هكذا فقط توافقوا تماماً مع المنظر والمناخ، وهو بالمناسبة أمر كان يتطلب مراعاة طقس النصف الآخر من الكرة الأرضية، من الآن فصاعداً، بالإضافة إلى الرياح الموسمية وكل الأمور الأخرى، أجل فعلاً، كانت الرياح الموسمية مهمة بصورة خاصة. فمن أجل هذا الهدف جرى تعيين عدد من المهندسين المجانين الذين كانوا يقومون في الموعد المناسب بنفخ البنايات عن طريق الخراطيم، متسببين في اقتلاع بعض أكواخ القش، من أجل جعل الريح الموسمية تبدو أكثر طبيعية.

«غداً تهب ريح موسمية»

هذا ما كان يعلنه البواب من حين إلى آخر، وكان ذلك يصدق تماماً، لأنه يكون قد رأى المهندسين مع خراطيمهم يحيطون بالحي.

هذا البواب لم يكن بواباً فقط وإنما أيضاً موظف جمارك وشرطي حدود. ونظراً لأن جزيرة البيتين واصلت استخدام النقود المحلية -العملات العظمية التي كانت تعرف باسم «عملات الوحوش»-، فقد توجب منع اختلاطها مع نقود المملكة التي كانت تتكون بالطبع أيضاً من العملات، ولكن من «عملات المتحضرين»: إن أي خسارة في العملات الصعبة لا يمكن إلا أن تحمل أضراراً لكل الطرفين، ولذلك توجب على السكان الأصليين أن يخضعوا للمراقبة، عندما كانوا يرغبون في التسوق أو الذهاب إلى السينما.

ممر المفاتيح السبعة

كانت منشأة الكلمات التي تمتد أسلاكها، ذات الضغط العالي من زاوية الغرفة إلى الزاوية الأخرى تئز من الصباح الباكر حتى وقت متأخر. كانت تزدرد الكلمات وتتمتمها حتى آخر مقطع، حتى آخر حرف، بل حتى آخر نبرة. وتماماً في الوسط، في مركز المنشأة كان يجلس المعلم، رابضاً وراء منضدة الكتابة. وحوله كانت تطن الإليكترونيات.

ذلك الترداد الذي كانت تدندن به القنوات وإشارات الإنذار والكومبيوترات، كان ذلك عالمه، حيث لا يسمح لأحد بإزعاجه. لقد تجاهل ضوء النهار، وكذلك أيضاً البشر، قدر المستطاع. وفي أفضل الأحوال كان يخرج إلى القاعة التي فيها التمثال، ليأخذ نفساً، ولكنه سرعان ما كان يعود - مرة أخرى إلى الغرفة. ولم يعد الشعب يتذكره إلا من خلال الصور الفوتوغرافية الرسمية. والتماثيل النصفية الموضوعة في مرافق الحدائق، أو -وهذا نادر- عبر القطع النقدية المزينة بالكلمات التاريخية «حاكم الدكاترة. المعرفة وسلطة الحاكم، عملة ذهبية». ما عدا ذلك لم يكن هناك ما يذكر به.

مواطنون قليلون، قليلون جداً، استطاعوا دخول البرج المتواضع الصغير الذي كان قد أغلقه على نفسه بسبعة مفاتيح. كانت هذه المفاتيح السرية الموقعة باسمه هي في الواقع:

مفتاح العنف، المفتاح الأكثر ثقلاً،

مفتاح البركات والتمسيح المقدس، وهو مصنوع من الذهب والبخور،

مفتاح التجارة، المفتاح العالمي،

مفتاح الجواسيس أو أيضاً فاتح أقفال الريبة،

المفتاح الخامس، ويسمى مفتاح التحالف، والموضوع في خدمة الأجانب، ذوي النوايا الطيبة،

مفتاح الرشوة، الذي لا يغلق إلا قليلاً،

مفتاح المزاج والصدفة، الذي يرتبط بالأشخاص ولا يجوز تسليمه لآخرين.

وكان يتم اختيار المفتاح الذي يُمكّن الشخص المعني من دخول البرج، طبقاً للحالة والشخص المقصود.

ويبدو أن المستشارين أوصوا بعد بعض الوقت باستنساخ مفاتيحهم، من أجل كسب مرؤوسيهم إلى جانبهم. وقد فعل هؤلاء الأمر ذاته مع مرؤوسيهم، الذين قاموا هم أيضاً من جانبهم بإيجاد مفاتيح إضافية لمن يأتي تالياً لهم، عبر هذه اللعبة الدائرية -المفتاح الذي يشكل مفتاح كل المفاتيح- حصل أخيراً حتى المتثائبون دائماً والمكتبيون الذين يقضون ساعاتهم في الجلوس، على مفاتيحهم الخاصة التي كانت صغيرة حقاً، ولكن مفيدة مع ذلك.

تدريجياً تحولت المملكة إلى أرشيف هائل، ذي أعداد لا حصر لها من الأدراج التي كانت تضاف إليها أدراج جديدة كل يوم.

وقد ثبت أنه من المفيد جداً معرفة عبارات معينة، يمكن عن طريقها فتح الأبواب وافتتاح الخطب. فإذا ما استخدمت بصورة صحيحة جاءت مطابقة للمفاتيح، وكان سعيداً من يفهم استخدامها بمهارة. وكان للنظام، كما اتضح في موضع آخر، تأثيره الذي لا يخطئ في اللحظات الصعبة وكانت كلمات القدر، الموتى، الأبطال تعتبر من المصطلحات المقدسة. أما وجود كلمة الولاء فكانت تنقذ أي جملة ركيكة. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك تعابير غير مسموح بها إلا للدا-ليين من الطراز الأول. بسبب من أن أفواههم كانت تنفث رائحة أخرى وتشع ببريق آخر.

ها نحن قد حللنا مرة أخرى عند الكلمات. كما هو الأمر دائماً. وكانت القواقع الدنيا المتذمرة، المتسولون الطيارون، تدمدم: «لقد استوطنت المملكة بالكلمات والذباب.» ولكن الحاكم كان يخنق كل نأمة عند هذه العصابة، حيث يقوم كل يوم بتحطيم الحصة النظامية من الكلمات. فمن أجل أن يخلص الإمبراطورية والأدمغة من السموم أراد أن يزيل التعابير الفظة والجمل المربكة. وقد نجح في ذلك. فقد أصبحت القواميس في لمح البصر قاحلة وصلعاء. بحيث لم يعد أمام القواقع الدنيا عملياً سوى التفاهم بالإشارات.

هذا ما كتبه بعض الرحالة المشهورين من أمثال جون بوي فون دين أنغلين، وفرانسواز الحساس فون غالين أثناء الليل وبيمونتيسر دومينكو إيكومينيكو، وهو راهب سنة كبيسة. كل هؤلاء انفعلوا بصمت المواطنين العاديين، ولكنهم انفعلوا أكثر من ذلك بصمت الحاكم الذي كان يعيش مثل زاهد، بمعزل عن كل حياة. فالمعلم الأصمت الذي يعرفه الناس كان في الحقيقة هو نفسه الأمجد الذي ينبغي أن يضاف إلى ذلك.

وبالطبع كان الرحالة المشار إليهم متحمسين وكباراً جداً، هدفهم التمكن من التعرف، على أن معالي الحاكم وهو في حماسته العمياء لملاحقة الكلمات كان،

مكتبة
t.me/soramnqraa

سجين!

نفسه هو بالذات، أجل سجيناً محبوساً داخل زنزانة.

لم يكن يستقبل عملياً ضيوفاً ولم يكن ليحتاجهم. ولكنه لم يكن يستطيع الاستغناء عن الكلام، ومع ذلك فإنه كان يلقي خطبه لأجهزة التسجيل، أي للمنشأة، وكر الكلمات.

محاطاً بالتفريغات والذبذبات الكهربائية، كان يملي بها في تسلسل منطقي للأفكار، كجمل موجهة جيداً. ثم كان يبدأ بالاستماع إليه -الأكثر من ذلك أنه كان يسمع نفسه- في الحقيقة، كما كان يقال، أثناء النهار وفي الليل وبتركيز معلم، يتابع أقوال تلميذه المحبب إلى نفسه. كان المعلم يكمن في التلميذ، كما التلميذ في المعلم، فقد كانا الشخص ذاته عبر الكلمة، مثلما كان الأمر في البدء[1] وإلى آخره.

المستشارون وحملة البكالوريوس الذين كانوا يحترمون أنفسهم أشغلوا أنفسهم بلغتهم، وكان معظمهم يفعل ذلك بطريقة غير واعية. ومفهوم أنه كان هناك آخرون يفعلون ذلك أيضاً بطريقة مقصودة تماماً. كانوا يتمرنون على

1- مثلما كان الأمر في البدء: وردت في الأصل باللاتينية.

الجملة بعد الجملة، وينصتون سراً في منتصف الليل، وهم متكورون أمام قمع الغرامافون إلى «صوت سيدهم»، مسجلاً على أسطوانات المملكة. وهكذا فإنه في نفس الساعة التي كان فيها الديناصور يكرس نفسه لخطبه كان حملة البكالوريوس المثقلون بالنعاس يفعلون الأمر ذاته، مع ضوء الشفق، في مختلف مدن المملكة. كان هذا أصعب دورة تعليمية، وحق الشيطان![1] أجل بالفعل: دورة تعليمية ليلية في الصياغات اللغوية المتكلفة على أساس نحو قادر على حل الالتباسات. ويضاف إلى ذلك أنه كان يجب عليهم أن يتقنوا فن قراءة ما بين السطور. ومع كل ذلك لم يستسلموا وإنما ظلوا يتابعون الأسطوانة الحجرية حتى ثلمت الإبرة. بل ويمكن للمرء أن يضيف إلى ذلك، أن هذه التمارين المستمرة كانت تلهمهم.

وقد انتقد المتسولون الطيارون المولعون برواية الأمثال الأمر قائلين: «من حق السيد أن يحمّل حمارهم كما يشاء.» ولكن نظراً لأنه لم يكن هناك أي إنسان أصيل، ينصت إلى مثل هذا الكلام، لم يشأ النبلاء أيضاً أن يهدروا وقتهم في الاهتمام بثرثرة حفنة من المرتدين. فقد واصلوا السير قدماً في دربهم التاريخي العظيم، من دون أن يخطئوا ولو في خطوة واحدة.

ومع الزمن أصبح الصعود إلى موسيقى الحاكم، إلى طريق اللغة، طريق الصوت أكثر مشقة. ولكنهم أصحاب الفخامة، لم يسمحوا لأي شيء ولا لأي أحد أن يثنيهم عن عزمهم. فلو أن كل إهانة أثرت فيهم بمقدار لسعة بعوضة، لربما احتاروا وأضاعوا نجمتهم الهادية من أمام عيونهم، بسبب السب والشتم. ومع ذلك ما الذي كانت الأمثال تستطيع أن تنزله بهم من سوء؟ كانوا يكابدون من الأمثال ولهذا فإنهم لم يحاولوا قط ركنها جانباً، بآذان منتصبة (إذ كان ذلك يتيح لهم التقاط طريقة التلفظ عند معلمهم بدقة) كانوا يتقدمون بثبات إلى الأمام ويتعلمون ويتعلمون ويسنون أظافر أصابعهم على صفحات القواميس التي كانت تقع تحت أيديهم وهم في الطريق. كانوا يهشّمون الكلمات، مثلما كان يفعل ذلك الحاكم في غرفته ثم يقومون بتنظيف المكان. وكانوا إذا ما تعثروا بجملة ما تغلبوا عليها أيضاً عن طريق

1- وحق الشيطان: وردت في الأصل بالإسبانية.

إعطائها شكلاً صحيحاً واحداً. بل إنهم تعلموا في النهاية تخمين الموقنات مقدماً، ذلك الصمت القيم في خطب المعلم، أجل والأكثر من ذلك أنه أصبح في مقدورهم تقرير ذلك وفق قياسهم الخاص.

عندما ذكر النبلاء أنهم قد بلغوا مستوى الذكاء الصحيح تعاظموا، راضين عن أنفسهم وانتفخت مناخيرهم وبدأوا يلقون الخطب بلسان منفلت. ومنذ ذلك الحين لم يعودوا يظهرون فقط على شاشات التلفزيون وفي صفحات الصحف وإنما في المحلات العامة أيضاً.

والمعلم؟ عندما كان المعلم يقرأ أو يسمع، كيف أنهم يثرثرون، مقلدين جمله. كان يتظاهر كما لو أنه لا يلاحظ ذلك. وإذا كان لم يفعل شيئاً ضد ذلك بسبب الرهافة فإنه لم يستبعد ذلك نهائياً. من الثابت في كل الأحوال أنه وهو يسمع نفسه من كل هذه الأفواه الكثيرة، قد نسي تدريجياً لغة البلاد وأصبح سجين لغته هو بالذات.

كان أجداد القواقع الدنيا وأسلافهم قد وعظوا أن بعيد النظر هو من يمتلك خصلة التظاهر بالعمى، وكانوا من دون شك على حق في ذلك. لقد سمح معاليه لحملة البكالوريوس الفصحاء، ذوي الألسنة المنفلتة أن يتجولوا في روضة التاريخ. لم ينقطع نفسهم وهم يفعلون ذلك ولو مرة واحدة، وإنما على العكس: نقبوا من دون كلل عن المناسبات ونقروا في ضرائب الإيجار الأصلية وتجسسوا على خطب الافتتاح التافهة وخزعبلاتها من أجل اصطياد كل كليمة. كانوا يعيدونها، معيدين بذلك كلمات المستشارين الذين كانوا بدورهم قد أعادوا مرة أخرى كلمات الحاكم الذي كان يقف في بدء الكلمة، في المستتر. مفتاح كان يفتح مفتاحاً، خطبة كانت تفتتح خطبة أخرى متى ينتهي كل ذلك؟ كانت هنالك نهاية ما، فقد وقع الذي لا يمكن تجنبه: كفّ الشعب عن الاستماع إلى المعلم.

«أي عقوق!»

لم يبق له للاجتماعات الكبرى التي كانت تعقد علناً سوى الجمهور الذي كان بسبب المراسيم المنسية شوكة في عين الحسود -انقر على

الخشب!- بما يمثله من بلادة بصورة خاصة. ولكن هؤلاء الناس كانوا لسوء الحظ من ذلك النوع من سكان الغابات الذين بعد أن انتزعوا من أعشاشهم فغروا أفواههم إلى آخر مدى، مندهشين أمام المسرحية المقدمة في العاصمة -باه!- وظلوا يساومون على فغر أفواههم إلى أن تنشقوا مرة أخرى الهواء النقي لمواطنهم في الجبال. ولا يعرف أحد حتى اليوم، ما إذا كانوا قد أفلحوا حقّاً في التقاط ولو كلمة واحدة من المعلم أو ما إذا كانوا قد تسمروا في أماكنهم وتركوا كل شيء يمر بهم.

ومع ذلك فإنهم كانوا الوحيدين الذين يمكن أن يحصل عليهم المرء. في اليوم الذي وضع فيه الحاكم رجله في ميدان الاجتماعات العامة. عُثر على سكان الغابات وهم غارقون في النوم. فجرى هزهم من أجل إيقاظهم.

«هاي» «أنت أيها الصديق!»

الاستيقاظ؟ لماذا ذلك في الواقع؟ كان الاستماع وعدم الاستماع سيّين عند هؤلاء المتنزهين، الأميين المقتنعين. بعد مسيرات ليلية طويلة تهالكوا داخل العاصمة، ثم استسلموا أخيراً للرقاد الذي استحقوه بجدارة. من الطبيعي أنه كان يمكن للمرء أن يقول إنه كان بينهم الرئيس الذي لا يستغنى عنه للطائفة والقضاة الشرعيين بل وحتى السيدة الرؤوم، المعلمة الأولى، ومع ذلك فإن المعلمين والموظفين ورجال الدين لم يكونوا جمهوراً حقيقياً. كانوا يحفظون كل الخطب عن ظهر قلب، ولهذا لم يكونوا يُعدّون من الجمهور. كان العمل مع هؤلاء الوطنيين يعني الكفاح ضد الريح أو تعلم الطيران.

صبراً، لم يدع الأستاذ ذلك يثنيه عن عزمه، فقد كافح من أجل الكلمة ولم يدع شيئاً يثنيه عن عزمه حتى تلك اللحظة التي قرر فيها بعاطفية وهو يريد إلقاء إحدى خطبه.

«إنني أستغني»

حيث أعلن أنه سوف ينسحب.

وهذا ما حدث أيضاً بعد ذلك، فقد سجن نفسه داخل البرج إلى الأبد.

الخطبة المشؤومة

هذه الخطبة التي نستطيع تسميتها بالأخيرة -أو بالأحرى وضع حرف أ كبير أمامها- إن هذه الخطبة «الأخيرة» كانت قد هُذّبت أكثر من أي واحدة قبلها، بأقواسها الغوطية وأطرافها الرقيقة. كنيسة صغيرة، مليئة بالأسرار، بدا حجرها الأساس كما لو أن يد نقاش هي التي صنعته. كانت أفضل وأذكى خطبة، كتبها الحاكم ولقنها للمسجل على الإطلاق.

قبل أربع وعشرين ساعة من قيام مكبرات الصوت ببث الخطبة في ميدان الاجتماعات العامة كان الفلاحون قد بدأوا مسيرتهم نحو العاصمة التي بلغوها عند الفجر. فبطلب من حملة البكالوريوس ورؤساء الطائفة تحركت تشكيلات الباصات التي تقلهم وقد وضعت عليها لافتات تحمل عبارة:

«نحييكم يا صاحب الفخامة!»

والتي تقدمت سراً ومن دون إثارة للانتباه.

ممسكين بقوة بالمطواة في أيديهم، وعلى الأكتاف جراب، ممتلئ بالمأكولات، بنبيذ من المخزن الاحتياطي ودجاجة مشوية في الفرن هكذا جاؤوا إلى هناك وذلك وحده كان كافياً حتى يتعرف المرء على أنهم كانوا رواداً أصيلين: ممولين فرديين لأنفسهم، يمتلكون حرية كبيرة. وبالإضافة إلى ذلك فإنهم كانوا قد جلبوا معهم أعلام المناطق التي ينحدرون منها: كان بعضهم يحمل في يده شارات محافظته، في حين كان آخرون يرفعون صورة قديس الطائفة، المرسومة بلهب المطهر. وفي ذلك أيضاً أثبتوا كمال تنظيمهم. كان يمكن للمرء أن يرقب مناديلهم المصنوعة من الحرير المطرز التي كانوا يرتدونها بفخر، كعلامة شرف، كإشارة ميدان.

المدينة الشريفة والطاهرة جداً
في نهاية العالم

أعلنت هذا؛

أعلنت ذاك، مرفرفة في الريح.

ولم تكن تلك سوى رايات الكنائس التي جرى تثبيتها على الأعمدة الخشبية وزركشت بالأسلاك والخيوط والأربطة، والتي لم تكن تخلو من الدلالة، فقد كانت تعتبر مع ذلك راية الجيش. متحدّين تحت مثل هذه الأعلام، ومراقبين المكان المحيط بهم بفضول، بلغ الفلاحون طرف المدينة، منتظرين، وقد عادت الروح إليهم، الأمر بـ «إلى الأمام سر!».

كانوا قد جاؤوا مع الصباح. وكانوا يشبهون في البدء، بوجوههم المغبرة التي نفر منها الدم، السائرين في النوم. وتدريجياً، أي بالقدر الذي غمر فيه النور المدينة التي كانت تعد نفسها للخطبة، ظهر الجوهر الفعلي لهؤلاء الدخلاء - هذه المخلوقات البسيطة، الأقرب إلى العناد. وكان في إمكان المرء الآن أن يلاحظ كم كانوا يبدون نحفاء وجافين ومتجهمين، وكم كانوا منطوين على أنفسهم، وهذا أمر ليس مستغرباً إذا ما تذكر المرء أنهم كانوا يجدون أنفسهم في منطقة مجهولة وأنهم لما يشفوا بعد من الصداع الذي سببته لهم السفرة. لم يكونوا يبدون عدوانيين ولا وضيعين كما أنهم لم يكونوا يثيرون الريبة بسبب ملابسهم -الشيء الوحيد غير الاعتيادي فيهم، ولم يكن حتى هذا يشمل الجميع، هو أنهم كانوا يضعون وردة خلف آذانهم- فقد وضعوا أنفسهم في خدمة دولة ابنهم ودولة الأعياد، وبالتأكيد حتى لا يمتهنوا كرامة سكان المدينة.

السكان؟ أي سكان؟ كانت المواصلات العامة خالية من البشر، وكانت تسير فقط، لأنها يجب أن تسير، من أجل الالتزام بجدول المواعيد. كانت المخازن مغلقة وأبوابها موصدة جيداً. ففي يوم الخطبة لم يكن أحد يساوم على الأسعار. فقد كان هناك، ما هو أهم منها. وكانت أرصفة الموانئ التي تمكث فيها القواقع الدنيا القادمة من ساحل البحر في العادة تمتد مهجورة هناك. أي سكان إذن؟

تحت مثل هذه الظروف جرى

دون أن يعني هذا أن الفلاحين لم يلتزموا ببعض التعليمات.

فقد كانوا يتقدمون مثلاً على شكل مجموعات، متجنبين إحداث أي ضوضاء. فأثناء سير دورياتهم عبر المدينة كان يتولى قيادتهم رئيس الطائفة أو السيدة الرؤوم المعلمة الأولى، ليطلعوهم على متحف التقدم والشوارع المشجرة. وكان مدعاة سرور لكليهما، رئيس الطائفة والمعلمة الأولى، أن يتمكنا من أن يثبتا لهؤلاء الأغبياء، كم هو قليل ما يعرفونه هم كفلاحين عن الحياة في العاصمة. ولكن الآن أيضاً لم يكد هؤلاء يشكلون أي انطباع عن حياة العاصمة، ذلك لأنهم إذ كانوا يستخدمون تجوالهم، لرؤية المدينة والبحر، وإذا ما أمكن فتيات الشوارع أيضاً، كان السكان قد غادروا إلى الريف بمناسبة يوم الخطبة. كان الفلاحون قد استغربوا وتعجبوا أن يلتقوا فقط بأشباههم في المدينة، الذين كانوا قد وضعوا أنفسهم بالطبع في خدمة دولة الأعياد وعلقوا صورة الحاكم على ياقاتهم أو على أشرطة قبعاتهم. إلى الأمام ثم كان المرء يلتقي بالطبع مجموعة من القرويين، ولم يكن هذا أيضاً بالتأكيد أمراً سيئاً.

كانوا قد تناولوا طعامهم في المنتزهات (المفتوحة للجميع) وفي ظلال الباصات (التي كانوا يثقون بها، لأنهم قد جاؤوا فيها) وأخذوا يعدون أنفسهم لاستقبال رسالة الحاكم. فعلى الرغم من أنهم كانوا شكاكين، كما يمكن أن تكون عليه الجرذان، فلم يبدوا عُزّلاً، فقد كانوا في النهاية ينتمون إلى المتنزهين الراغبين في قضاء يوم الخطبة احتفالياً، كما أن حرس المدينة لم يكن ليتردد في إعادة كل من يتجاسر على احتقارهم إلى النظام. وكان هذا السلام يستحق، أن يهتف له هؤلاء من وقت إلى آخر بـ:

«ليعش صاحب الفخامة!»

وأن يشكروا قديسهم المفضل على الحماية وعلى رحمة ألا يعاقبوا في العاصمة، بسبب فضولهم الأثيم.

فائحين برائحة الريح والجبل بلغوا في الساعة س ميدان الاجتماعات

العامة، في نفس الوقت الذي كان فيه معاليه يفتتح، كما يفعل دائماً خطبته بـ «المعرفة هي سلطة الحاكم».

تدفق الصوت من المنصة، منحدراً من الأعلى أو صاعداً إلى الأعلى، مبصوقاً من أفواه جيش كامل من مكبرات الصوت التي نصبت فوق غيوم المتخيل؛ صوت شامل، يحوم أمام الجميع وفوقهم؛ الصوت الأقوى، صوت، يتلوى من التصفيق. منتظمين في فرق فرسان، تحت الشمس والرايات، اشرأب الحجاج بأعناقهم وحاولوا اللحاق به في تحليقاته العالية. لم يفهموا، ومرة أخرى أيضاً لم يفهموا، في الواقع قليلاً جداً، يكاد يقرب من الصفر نظراً لمعارفهم القليلة في لهجة الدا-ليين. ولكن هذا لم يكن مدعاة للكآبة: إنهم سوف يتعلمون أن يفهموه فيما بعد، عندما يقوم القس والسيدة الرؤوم المعلمة الأولى بجمع كل من في القرية حولهم، للتعليق على الخطبة، وسوف يكون هذا ترجمة بتصرف، في حين أنهم كانوا في هذه اللحظة يسمعون خطبة مكبر الصوت، الخطبة الأصلية التي كانت تنهال عليهم بوابل من أفكار شهاب آخر.

«برافو!»

«ليعش الحاكم!»

سكارى ضوء، بل أقرب إلى العمى في إعجابهم باللاشيء، بزرقة السماء، جهداً للإمساك برأس شليلة الصوت. أحسوا أن قوة نبوة ما تتلبسهم، ولذلك أرسلوا أنفسهم إلى الداخل للإنصات إليها. وفوقهم كانت قد كتبت أفقياً في السماء الشعارات المبنية بصورة نحوية صارمة، هزيم رعود بلاغة نجمية.

«برافو! برافو! برافو!»

«الحاكم! الحاكم! الحاكم!»

افترض المرء أنه من الخرق الاعتقاد بأن المعلم قد سمح لنفسه أن ينخدع بهؤلاء المتنزهين الأميين، مشيراً إلى أنهم كانوا يفغرون أفواههم ليتصيدوا كلماته ومن ثم دفعها إلى داخلهم هاتفين، حتى قعر أرواحهم،

آملين في الحفاظ عليها مصونة. آه ماذا! كان الحاكم يعرف جيداً حاجة النعاس التقليدية عند المشاركين، في يوم الخطبة، ومع ذلك كان يريد أن يغشاهم الصوت. أجل، هذا ما كان يريده وقد أصر على ذلك؛ ولكن الذين وجدهم أمامه كانوا سذجاً، من الذين يزدادون خسارة في أرواحهم. كان قد جمع حوله في الميادين كأتباع له خلقاً فوق خلق، ولكنه كان في آخر المطاف أكثر وحدة مما مضى، أي حزن أن يكون المرء محاصراً بالجهل والعقوق! بالفعل:

محاصر!

إننا لا نتهيب من أن نلفظ هذه الكلمة.

حتى يوم ع (ع اختصار للعيد وخطبة العيد كملاحظة جانبية) لم يكن أحد يتوقع التحول الذي حدث.

عندما كان الحاكم وسط خطبته انّقد شيء ما في ذهنه فجأة. اتضح له أنه كان على وشك أن يلقي باللآلئ تحت أقدام هؤلاء الأميين الذين لا يصلحون لشيء. بعد الآن لن يكترث بهم وبالبلاد كلها. لقد استغنى. وفي اللحظة ذاتها التي استغنى فيها عن البشر -فأل سيئ-، اتجه إلى التاريخ.

لقد اتخذ القرار في يوم ع بالذات، أثناء الخطبة «الأخيرة»، ذات العواقب الخطيرة. فأمام الجمع المحتشد في ميدان الاجتماعات العامة نسف معاليه الحصار، حيث وجه أيضاً جملة منبرية إلى العالم الآخر، بهذا الشكل أو ذاك إلى الموقع الذي كان يجب على التاريخ أن يوجد فيه. لم يكن يريد بعد أن يمر بخاطره، لا في الصباحات ولا في الأماسي، أي أمر يتعلق بالقواقع الدنيا، سواء تلك المنحدرة من أعماق الريف أو من الساحل. ليس أكثر. سوف يكرس نفسه ابتداء من الآن لمدارات التأثير الأخرى للمتأوربين ونجوم الشعوذة، للعباقرة ذوي السمع المرهف، ولكل القارات بصورة عامة. لم يكن مثل هذا الأمر مبكراً أكثر مما ينبغي ولا متأخراً أكثر مما يجب، بدّد، عوّد! لقد اختط لنفسه نهجاً جديداً.

«انتباه، أيتها العوالم!
طاب يومك، أيتها الكواكب!»

بقية الخطبة كانت سكرة علاّمتية، وجهها بنكران ذات إلى أمم الكون، نصح ووبخ. طالب بإظهار السليم ووعظ بالسلم العام. عندما انسحب دوّى ميدان الاجتماعات العامة بالتصفيق.

ولكن أسوأ ما في الأمر هو أن العوالم والكواكب لم تكن تقع على نفس طول موجة الحاكم، بل إنها لم توجه إليه حتى كلمة شكر. وكان من الواضح أنها لم تسجل أي ملاحظة عنه - أو أنها لم تكن راغبة في فعل ذلك. كانت ساهية تماماً، تفكر في اتجاه آخر.

قال المعلم، غير قانط، عندما كان مرة أخرى في البيت: «ومع ذلك». (كلما بقي أكثر في البيت، ازداد شجاعة، إلى أن أصبح في النهاية نبياً في داخله، أي أنه لم يلق بسلاحه الآن أيضاً). حبس نفسه داخل غرفته، مغتاظاً جداً (وداعاً أيتها الميادين العامة، إلى لا لقاء!) من أجل كسر أمواج اللامبالاة وقهرها، تلك التي تمنع اتصاله بالقارات، ذات القدرات الهائلة. مثل من مسَّه الشيطان ألقى بنفسه في العمل، محاولاً الوصول إلى الكواكب بنداءات التذكير! وكان يتحرق ويستشيط غضباً.

القسم الثالث

الكلمات

مثلما قيل، فإن الحاكم تحول إلى الكلمات بغضب مضاعف، بسبب الخيبة تجاه الفلاحين الذين تقاطروا للرحيل، ومن سكان العاصمة (الذين كانوا قد سافروا في الاتجاه المضاد، لأنهم كانوا يهرعون إلى الريف حالما يشمون رائحة الخطب).

واصل إلقاء الخطب -ولكن ليس بعد في العلن وإنما فقط في الحجرة. وعبر محطات التيلكس والتلغراف كان الصوت المكتوب أو المثبَّت على شريط يأخذ طريقه المباشر إلى كل قارات الكون؛ لقد اخترق نظام الكواكب ورنّ هناك، بعيداً عن القوانين الأرضية، كصدى يوغل، صدى- ى - ى... وكان الحاكم قد وجده منذ الصباح الباكر مطبوعاً في الجرائد، مثيراً للإعجاب بصياغته ومحتواه، حيث كانت قوة تفكيره قد انطلقت بكاملها الآن. وقد نقله الراديو والتلفزيون بين مارشات النصر وكورالات المواكب، واحد-اثنان، يمين-يسار، ليتمجد الرب في الأعالي[1]؛ من دون انقطاع يبصق مكبر الصوت في الغرفة صوته، لغته. كانت الكلمات التي اختارها وربطها بعضها مع بعض، هل تعرفون، قد التقطها من دون توانٍ من فم الأفخم في إقليم الدكاترة، ثم قام بصقلها.

في الحجرة

1- ليتمجد الرب في الأعالي: وردت في الأصل باللاتينية.

-وفي الحجرة فقط- أخذ الحاكم منذ الآن يمارس سلطته. كان يكتب أمام صورته الفوتوغرافية الرسمية وينصت إلى نفسه في مكبر الصوت، وهكذا كان رسم خلقته وصوته حاضرين إذن على الدوام.

من وقت إلى آخر كانت الحبال العصبية للمنشأة ترتج وتطفح قطرة من الندى. وبدا أنها دمعة صغيرة -وقد كانت كذلك بالتأكيد! أضيء زر، توهج، ولكن الديناصور الفاضل الذي كان يجلس من دون حراك وراء المنضدة كان قد لاحظ ذلك. هو أنت؟ ارتجفت الإشارات على لوحة الإنذار، ونبضت الأضواء. بدأت الكومبيوترات بالعمل، أبلغت مفتاح الشفرة بذلك وبصقت الجداول. وكلما صر التيار أكثر- بس س... بس س س س - اشتد كفاح الأصوات مع الموت. أجل، لم يعد ثمة شك في أن كلمة سقطت مرة أخرى في المنشأة، واحدة من بين كثيرات.

بنظرات قاسية وجشعة تابع المعلم، كيف أن الكلمة وهي معلقة بالنقطة، بالفاصلة تمرر بالقنوات، وكيف أنها تسلم من دون رحمة لشريط الكومبيوتر المثقب، ملتوية ومنتفخة من الألم. وهكذا كانت الكلمة تستقر بكامل سيرة حياتها - الأصل، عائلة الكلمة مع جذورها، تفرعات الدلالة التي اكتسبتها مع مجرى الزمن، باختصار جرى تسجيل كل شيء. كانت إحدى عيني الحاكم موجهة بثبات إلى المنشأة والأخرى إلى الشريط المثقوب. وكان لا يزال في وسعه أن يترك لنفسه الوقت. ولكن عندما حلت اللحظة الصحيحة اندفع -تزاك- بخفة حركة مستغربة من قبل بنية مثل هذه، هي ليست سوى جلد وعظم، نحو الكلمة وازدردها. في مكان ما من البلاد فقدت قوقعة دنيا في هذه اللحظة صوتها.

كان يتوجب حتى على أقل الكلمات أذى أن تمر بالمنشأة بالتأكيد. وقد لقيت الصفات المتوسطة أو الظروف المتزحلقة المصير ذاته - كان ينبغي على المملكة، من أجل أن تكون مملكة، أن تقتصر على الكلمات المشحونة بالتوتر. كانت هذه خطته.

أجل ولكن، تمعّن المعلم، ماذا عن مجموعة الإشارات؟ لحظة، كان يمكن لمجموعة الإشارات أن تتحول في غفلة من الزمن في أيدي القواقع

الدنيا الفوضوية إلى فخ، وكان هذا محرجاً. أو ماذا إذا لم يعرف أحد بأن نقاط الحذف الثلاث المرمية في نهاية الجملة يمكن أن تكون فتيلة إشعال لاستنتاجات، لا تعرف عواقبها؟ وإشارة النداء؟ هل ثمة قنبلة، يمكن أن تتفجر بقوة أشد من إشارة نداء؟

كلا، فلأن الحاكم كان يحرث حقل النحو بكل عناية، حتى يكون نظيفاً تماماً، توجب عليه أن يتعقب مثل هذه الحثالة التي كانت تبدو غير مؤذية ظاهرياً. فلقد شهد كيف أن بعض حملة البكالوريوس كانوا يتعثرون بالفارزة ويسقطون على الأرض في وسط الجملة، أو كيف أن واحداً آخر، من حيث لا يدري يأخذ باللهاث قبل أن يبلغ نقطة النهاية، وهو أمر لم يكن يبدو قليل الخطر. فما بين الأغبياء الأكثر رضاً عن أنفسهم كان قد التقى العديدين -وهم ليسوا قليلين من دون ريب- ممن كانوا يفتحون الأقواس ثم ينفون بين القباضتين، وكان هناك مرة أخرى آخرون، تدحرجوا فوق نقطة النهاية، بل إنهم اجتاحوا حتى الوقفات بطريقة غير لبقة. أو لم يكن ضرورياً جداً إذن وضع نهاية ما لكرنفال الحثالة هذا، نهاية بحروف كبيرة هي فوق الطعن فيها أو العدول عنها؟

اتخذ الحاكم إجراءاته. أدرك أن أمر المحارب يظل مجرد أمر، إذا ما أعقبته ثلاث إشارات نداء، آخذين بنظر الاعتبار براءة الاختراع والصدى. لم تكن نقاط الحذف الصغيرة أكثر من منافذ للمتخوفين وللأعداء السريين؛ وعلى العكس من ذلك كانت الفقرات والنقاط المزدوجة تحتل موقع الشرف في المراسيم والتقارير. وقد أفتى بأنه يمكن للمرء في الأمور الصغيرة أن يرى ما إذا كان النظام سائداً، وقد وضع في أفكاره الكلمة بين إشارتي نداء، كانتا سابقتين وتلتمعان مثل حرب حرس الشرف.

!نظام!

ومثلما قال ذلك فإنه فعله. حاملاً في يده شبكة روبيان، بدأ بصيد الفوارز من النثر الأكثر اضطراباً؛ ثم اصطاد علامة التكرار، تلك الفراشة، وزخرف النقاط الفاصلة، كما أبعد أيضاً علامات الربط ونظمها بعناية، بحيث أصبح

في إمكان المرء عن طريقها حل ألغاز الخطب المضطربة. أما علامة الفقرة، فرس النهر الضئيل هذا، في الصحف المصفرة منذ زمن طويل فقد سمح لها أن تصرف مستقبلاً أيضاً مراسيمها وقوانينها المحبوبة بكل فخامة. وقد أبعد هنا وهناك فقط قطرة العسل، إشارة النداء، بحيث لا تصبح الجملة فاقدة لكل ضابط، هذه ليست سوى بعض الأمثلة.

وهكذا أصبح الحاكم الزاهد، بسبب تفكيره الذي لا يكل في معتكفه، عجوزاً. وحول شرنقته كانت تمتد هناك بسلام قلعة المفاتيح السبعة: الهدوء، ممرات المرمر، القاعات المهجورة، ومع ذلك فإن الجحيم كان في الغرفة: كانت الكومبيوترات تزززز وتطن، والشريط المثقوب يلف أحكام إدانته، وفوق الجميع كان مكبر الصوت يتربع على عرشه، باثاً الخطب الموجهة إلى الحكام الإفرنجة: «هالو، أنتِ أيتها العوالم، وأنتِ يا دروب التبانة الخالدة!».

كانت فترة الاستراحة القصيرة التي اعتاد المعلم على قضائها في الغرفة المجاورة مريحة بالنسبة له. وقد روي أنه كان يمتلك، في هذه اللحظات عادة، عادة شخصية تماماً وهي أن يضع ذراعه حول كتفي التمثال ويمكث عنده متأملاً، الأخ مع أخيه، وهما متوجهان نحو مائدة الاجتماعات. هكذا كان يقال، ومع ذلك، فإن هذا كان يقع بين قوسين، ذلك لأنه كان استثناءً في حياته.

بعد أعوام

بعد أعوام وبعد أن أراد أحدهم رؤية الحاكمين، البرونزي وذي الوجه الشمعي بعضهما إلى جانب بعض، تبدت ظواهر استهلاكية. كان الزمن قد جاء بها معه. ولأنه كان منحنياً باستمرار على منضدة الكتابة فقد أصيب المعلم بالاحديداب في ظهره، ونظراً لأنه كان يوجه الكلمات من دون كلل عبر أمواج الأثير إلى عوالم -هالو، ويلوكها مغمغماً، بينما كان قلم الرصاص يطير فوق الورق، فقد اختفت شفاهه، كانت قد امتُصت. وبدا فمه جرحاً كبيراً وكانت أسنانه مكسوة بالقشور- غول.

يا يسوع، كيف غيرت نفسك!

صاحت أمه عندما رأته هكذا.

بدت يده اليمنى عندما عانق بها التمثال نبيلة، بل وفوق أرضية، مثل يد أسقف، ولكن مثلما يقر المرء الآن، فإن هذه اليد اليمنى كانت بالطبع مشوهة. كانت مرصعة بتقرنات كبيرة وبعقد قلم الرصاص؛ كانت الأصابع تتدبب مثل مخالب، لم تعد اليد يداً وإنما أي شيء آخر، حزمة من الجذور كانت تتعلق بالذراع وتنزل حتى الركبة. العينان فقط، المدربتان على أن تكونا في كل ثانية في حالة صيد للطريدة، لم تفقدا شيئاً من حيويتهما - لؤلؤتان.

يا يسوع!

كانت الأم قد قالت ذلك بالفعل. أو ربما لم تقله أيضاً، لأنه وهذا مدون في الكتب، يمكن للمرء أن يحب حتى القبيح أو أن يضع نظارة أخرى ويجده جميلاً. الأمهات هن الأمهات بالطبع، وكل واحدة منهن هي مثل الأخرى. وقد حدث الأمر ذاته أيضاً مع سادة القصر، المختارين الذين كانوا يملكون مفتاحاً، حتى يتمكنوا من الاقتراب من صومعة الحاكم. كانوا يرتدون نظارات ذكية، لا يبدو القبيح عبرها قبيحاً هكذا. بل إنهم قد لاحظوا أن جبين الحاكم كان منتفخاً، ومع ذلك قالوا إنها درنات الحكمة المشهورة التي تطفح بفعل ضغط الأفكار. وقد سمّوا اليد المشوهة بـ«المقدسة» لفرط ما عملت لمصلحتهم ومصلحة البشرية بصورة عامة، هذه اليد ذات المظهر المرعب، النحيفة كانت تذكرهم حتى بأيدي الزهاد الصائمين في القفار - ليتمجد الرب[1]. أما ما يتعلق بالحدبة، وهي ثمرة سنوات طويلة، فقد كان فرانسيسكوس المقدس الذكي نفسه يمتلك مثلها، الخطأ مردود. ولم تكن صغيرة جداً.

هكذا يقف المعلم أمامنا الآن، نامياً، خالعاً هيئته الإنسانية. وحش حكمة يتحرك فوق قفار موحشة، فوق عوالم مشيدة -رماد، ماء ومعدن-، يظهر

1- ليتمجد الرب: وردت في الأصل باللاتينية.

مُسنّن وجلال مرعب لحيوان الخلق الأول. لقد أسماه أحدهم ذات مرة بالديناصور، فاحتفظ بهذا الاسم. هو يوصف في التاريخ باعتباره الديناصور الأول، الحاكم والمعلم، أما في ذاكرة القواقع الدنيا فهو بكل بساطة الدكتور الديناصور، أو الدكتور سن الديناصور س، بحيث يرن الاسم بفظاظة أكثر وعتمة أشد. بكلمات أخرى؛ أكثر آثارية. وهكذا يكون قد عبر عن الأمر بصورة أفضل.

السر
المحيط بالمرايا المروضة

اتفق المستشارون ذات يوم، سواء بسبب الخوف أو الطاعة، على أنه لا يجوز لصورة الحاكم في المستقبل أن تخرج على الصورة الفوتوغرافية الرسمية التي كانت تتطابق مع التمثال، إضافة إلى اتفاقها مع التصور الذي كان الشعب يحمله عن الحاكم؛ ففي قضايا الشعب كان رجال الحاشية متطرفين.

كانوا يثرثرون بهمة ومن دون تردد:

«إننا نستهلك أنفسنا حتى الموت، من أجل أن يخدم فخامته الشعب.»

كان الاحتفاظ بهيئة الحاكم بما يتطابق مع إرادة الأمة بالنسبة لهم واجباً ثابتاً، أو لنقل واجباً عالي القداسة. والأكثر من ذلك: كان هذا الواجب في عيون الأجناس القادمة وارتباطاً بالمصير السامي للمملكة بالنسبة لهم ملزماً. واجب خالد، وبالطبع رسالة خالدة. ولم يكن في إمكان المرء الآن أن يتوقع فهماً أكثر. تفحص المستشارون وهم يقطعون أوراق أزهار الأبدية، أي وزن كانت تمتلكه الأسباب المنفردة. أول كل الأسباب: شك سعادته. أفلم يكن أكيداً أن الحاكم سوف يصاب بصدمة، عندما يلمح هو الديناصور -الديناصور س نفسه في الصور الفوتوغرافية للصحف، في التلفزيون أو- وهو أمر أكثر فضائحية، في الصحافة الأجنبية. السبب الثاني: اقتصاد الدولة. فمن أجل صنع تماثيل جديدة، أختام جديدة، نقود جديدة واستبدال الصور

والميداليات، كل ذلك كان يمكن أن يتسبب في نفقات هائلة وأن يشكل تبذيراً وأن يتحدى الرحمة الإلهية.

«هي التي أضفت علينا رحمة
السماح لنا بأن نتمنى أن نكون فقراء»،

هكذا كان المستشارون يرددون في الكورس، مفكرين في دعم خطة الميزانية.

وقد ذكروا أن الأمر يستحق التمعن فيه بجدية، وكانوا بالتأكيد مفكرين من أنقى طينة. على سبيل المثال: كان جزء من المملكة يعيش على الصور التي تعرض الحاكم كعلاّمة شاب. وكان المرء يتساءل: هل بيعت كلها؟ ما من أثر كانت هناك صحون، رسم عليها معاليه بكثير جداً من اللطف، ووسائد، طرزتها الأمهات العجائز المجعدات، وهن يرتدين النظارات وميداليات فلّين في الحانات، حيث يمارس لعب القمار سراً، باختصار كانت هناك أعمال فنية كثيرة سُجّل عليها بروفيل الحاكم إلى الأبد: جدّي ومتكامل. المعرفة هي سلطة الحاكم! تغيير هذه الصورة كان يعني:

أن تقاوم
الثورة التقاليد
وأن تسلب السحر من السياحة

ولم يبق الآن سوى السبب الثالث، ومع ذلك ما كان المرء ليقرّ به لنفسه: كان هذا اعتقاد المستشارين بالخرافات، وبالفعل كان لذلك ثقله الخاص. كان المستشارون يؤمنون بالخرافات مثل الحمير. كانوا يرتدون الملابس ذاتها -كما في جنازة- ويضعون نظارات بنفس الزجاجات، حتى يتمكنوا من قراءة المراسيم بنفس الأسلوب والطريقة (هكذا كانوا يعتقدون على الأقل)، كانوا يرجعون خطوة واحدة إلى الوراء عند باب الاجتماع، حتى يتمكنوا فقط من الدخول برجلهم اليمنى، وحالما كان الواحد منهم يتفوه بكلمة (سوء الحظ) كانوا يكورون قبضاتهم تحت المائدة أو يصلبون على

أنفسهم مذعورين، وهو بالمناسبة أمر لم يكن قط غير لائق بهم، ولكن على كل حال، كان استبدال الصورة -يا لله!- سوف يعني جلب الشؤم واضطراب النظام والمملكة أو أي شيء قد يكون هناك أيضاً. وكان يعني بعد ذلك أن يعرضوا قطعة من أنفسهم للخطر، ذلك لأنه كان لهم جميعاً وبشكل ما حصتهم بكل فخر وحمية في صورة معاليه.

«برافو! ليعش الحاكم الأبدي!»

من أجل أن يظل خالداً ويبقى فوق العمر، قرروا أن ينصبوا مرايا خاصة في برج المفاتيح السبعة، تقوم بتصحيح صورة الدكتور الديناصور، وتعكسه باستمرار كحاكم شاب، مثلما هو في الصورة الفوتوغرافية الرسمية. وسرعان ما تطابقت صورة المرآة مع البورتريه الذي كان معلقاً فوق منضدة الكتابة داخل إطار كبير بحجم 37 × 22 سم، كما كانت تتطابق مع الأخ البرونزي. وفي الوقت ذاته جرت تهدئة الاعتقاد المبرر بالخرافات عند الدا-ليين. وإذا كانت ما تزال هناك الجرائد والتلفزيون فإنه لم تكن هناك خشية من وجود صعوبات، لا يمكن التغلب عليها. فالتلفزيون هو حيلة كاميرا وشعوذة مساقط ضوئية: بكثير أو قليل من النجاح يمكن لأي عجوز أن يتحول إلى غلام وأي مجموعة إلى كم هائل؛ إن هذا قضية روتين فقط. وقد نصحوا الجرائد باللجوء إلى مؤثرات الظلال أثناء التصوير وإضفاء الرتوشات في المختبر، حتى يبدو الحاكم شاباً. والآن إلى العمل بحمية!

هل هناك شيء آخر غير واضح؟

وفي الصباح الباكر عندما حدق الحاكم في صورته في المرآة، حيّا المرآة وسألها:

«أيتها المرآة، أيتها المرآة الغالية
من يتحدى مثلي العمر
في هذه البلاد؟»

«لا أحد يا سنيور، لا أحد. إن
حياة منظمة، بالإضافة إلى المعرفة
والكلمة، تجعل الإنسان
لا يموت»،

أجابت المرايا المروَّضة. وإثر ذلك ذهب المعلم راضياً إلى المكتب، حيث تتدفق الخطب من أقماع الصدى في الجو. جلس على منضدة الكتابة. أمام الصورة الرسمية وتصفح الجرائد ثم سأل:

«وأنتن،
أيتها السنونوات الصغيرات المثرثرات؟»
«نحن، يا صاحب الفخامة...»،

هذا ما بدأت به السطور الأولى من الصحف اليومية بكل جد، ولكنها ترددت بعد ذلك وتهربت في ثلاث نقاط. وأخيراً تماسكت مرة أخرى وأوضحت:

«نحن أيها المعلم صحف
مسافرة بعيداً، نحن نعرف كبار
العالم ولا نلتقي عند أحد
مثل هذا الجَلَدِ الفاضل.»

حرك الديناصور الأول أنفه. الجلد؟ كان هذا لا يقول شيئاً، ولكنه أراد أن يجعله يمر. وأخيراً كان سيكون من السذاجة أن ينتظر المرء أكثر من ذلك من هذه الجرائد التي لا تقول شيئاً.

هالو؟ لقد قطع الاتصال
مع العالم

ظل الظهر ينمو أكثر فأكثر باستمرار. ينمو، ينمو وينمو، حارساً المنشأة، كان الديناصور يبتلع الكلمات. ابتلع، ابتلع وابتلع، وفي فلين مكتبه استمع إلى الخطب التي كان قد كتبها على مر السنين، مؤلفاً باستمرار المزيد من الخطب بعد أن طمأنته بلادة العالم. كان دكتوراً حكيماً، فناناً ساحراً، بل إنه تمكن حتى من زرع رسم الكلمات من القرون الوسطى في لغة الأحياء.

«هالو، أنتِ أيتها الكواكب!
انتبهي إلى الكلمات!»

ومع ذلك كان العالم في ذلك الوقت جاحداً وضعيف السمع. كان الدكتور يبث الأخبار -«هالو، هل تسمعون؟»- ولكن العالم كان قد أغلق قلبه، ولم يسجل أي ملاحظات عن ذلك. قام بإرسال احتجاجه -«هل تسمعون؟»-، ولكن العالم لم يهتز ولو مرة واحدة. العالم، آه أيها العالم!

وكان عجيباً، عجيباً تماماً، بل وعجيباً بشكل مطمئن، أنه قد بدا صعباً حتى بالنسبة له، أن يسمع نفسه. ترى هل يكمن السبب في أنه كانت تنقصه الحوارات؟

مغترباً قام بفتح أحشاء مكبر الصوت ونصبه، معلياً صوته، وفي اليوم التالي جعله أكثر علواً. كان يريد الإمساك بأناه الخاصة، حتى يتابع كيف أنها ستمتد في التاريخ.

«هالو، أنت أيتها الكواكب...»

فلم تجب سوى زفرة. كانت المسافة كبيرة جداً!

جلب أجهزة عالية الدقة، أجهزة وقاية من التشويش، ميكروفونات ولوازم أخرى لا تحصى. لم يحدث أي شيء أثناء ذلك. وبدت الغرفة من الضوضاء -الصراخ، التصفيق، والهتافات- كما لو أنها تنفجر، وكان كل ذلك يختلط بمزق صوتية من النشيد الوطني، منكسراً لجأ الحاكم إلى أخيه البرونزي الذي كان أصم مثله. شعر بالرغبة تعتمل في داخله، أن يعجل بهروب مرعب من بقية العالم وأن يقطع أي ارتباط معه. لم يكن قط قد

قبل باحتمال التوقف عن الاستماع إلى نفسه، ومع ذلك فإن الخطب، آه، كان عليه أن يتخلى عنها منذ زمن طويل. كان أمراً لا مفر منه، إذ لم يبق أي مجال في الوقت. أن يمكن للتمثال أن يشهد، كم كانت الإعلانية في كل هذه السنوات كبيرة، والتي حاول أثناءها الوصول إلى القارات. لم تكن حتى حماسة موسى الذي كلّم الصخور لتقارن بما كان قد أخذه هو على عاتقه.

«ولكن قد حلت الآن، أجل الآن اللحظة للتخلي، تكلم المعلم مرتاحاً إلى أخيه البرونزي. (بصوت عال، لأنه كلما ازداد صمماً أحس بنفسه أكثر وحدة، تمنى متشوقاً أن يسمع صوته).

إذ كان يقف هكذا هناك، معانقاً التمثال، لاحظ في الخارج عصفورين فوق أشجار الطلح أمام النوافذ. وقد جعله منظرهما يرتد بأفكاره إلى الوراء: كان يعدو عبر أزقة أهل البكالوريا الذين كانوا يسردون مذكراتهم، وعبر شوارع كانت تتدحرج فيها شاحنات رمادية وتخب فيها حمير مبتهجة -تر ب ب- ترب ب -؛ محمياً من أمه المقدسة كان يعدو إلى الوراء، إلى الوراء (مولياً ظهره باستمرار إلى المدينة)، إلى الوراء، حتى الطفولة في القرية، وسط أشجار الصنوبر وصناديق التفاح.

كان العصفوران يقفان متلاصقين أمام النوافذ في الهواء الطلق؛ وعلى مقربة مباشرة منه تماماً، ولكن الأكثر حضوراً كان هو منضدة مجلس المملكة بأغلفة الإضبارات المصطفة بعضها جنب بعض، والخالية من أي نقص وبالمقاعد المهجورة. وكان مدير جامعة أصم وأبكم نفسه ويشبهه قد سلم هذه القوائم التي يصعب تصورها والفخاخ التي لا تعد للمستشارين الطموحين. وفكر، هذه مشكلة أخرى، هؤلاء المستشارون. إن هذا غير مهم الآن، ما يهم هو هذه اللحظة قبل أي شيء آخر، هو قطع كل الاتصالات مع القارات مهما كلف ذلك من ثمن.

وعما إذا كان قد قطعها! لم يوجه بعد أي كليمة موت إليها، لقد «استغنى» -هذه هي الكلمة الأكثر سداداً. وفي ذلك استخدم مبدأ الشهير عن السبب والنتيجة، وكان ذلك يفهم هكذا: إذا كان حاكم فعلي ما لا يقدر على سماع نفسه فإن الآخرين أيضاً لن يحتاجوا للاستماع إليه- وإلا فإن المنطق

محض شعوذة. ولذلك: وداعاً أيها المتفرنجون، وأنتم الأكثر بعداً، وداعاً أيها الحفاة المتهورون، وأنت يا ممالك ناطحات السحاب، أنت يا عوالم ويا عوالم مضادة، وداعاً، وداعاً، فقد انسحب إلى الأبد صوت العقل. إنه يترككم للاعقل، بحيث تعودون مرة أخرى إلى البداية، وتكونون مرة أخرى حمقى وجهلة وكفرة، حيث لا يد تمتد إليكم.

وهو أصم. أصم لسوء الحظ.

لو افترضنا أن رجال الحاشية قد علموا بهذا القرار فإنهم كانوا سيهنئونه على ذلك. ولقالوا، صحيح هكذا. (كانوا يحلمون بساعة الانتقام، متكدرين من أن الأمم الأخرى تلتزم الصمت بمثل هذا العناد). صحيح هكذا، لأن هؤلاء الغرباء لم يكونوا بالنسبة لهم سوى

عصابة هائلة من الكفرة،

ففي حين أن معظم الكواكب كانت تعيش في اللعنة، كان إقليم الدكاترة يقدم استثناءً مجيداً. فحتى إذا ما قوطعت كلمة المعلم (لفترة قصيرة إن شاء الله) فإن البلاد تستطيع مواصلة العيش بسلام، لأنه ما من شيء يكون قد حدث فوق الأرض أو في النجوم، وهو غير مدون سلفاً في الخطب. وكان في إمكان الدا-ليين أن يوضحوا أن المرء لا يحتاج إلا إلى أن يذهب إلى الدكان ويقتني الشريط المناسب.

ولكن لا الدا-ليون ولا سادة القصر كانوا يعلمون -ولن يعلموا أبداً أيضاً-، أن الحاكم كان أصم.

«ليحفظني الله»،

همس لأخيه البرونزي. لن يمد يده إلى مثل هؤلاء الأوغاد، وأبداً ليس يده الكبرى التي تمسك بقلم الرصاص، كان يعرف هذه العصابة عن غير ظهر قلب وعن ظهر قلب ولذلك تحمل الأذى -صامتاً، بكل سرية-، في حين كان يمكن لكل شيء في الخارج أن يتخذ مجراه الطبيعي. وكان يمكن للمستشارين أيضاً أن يواصلوا اجتماعهم في القاعة مع التمثال، كما كان

قد أمر بذلك من قبل؛ كان يمكن لهم أن يتحدثوا أمام الأشرطة التي كانت تسجل كل شيء، كل تردد، كل وقفة في التفكير، حيث كان يمكن فيما بعد لكاتبات الاختزال تولي الأعمال الكتابية. وكل ما عدا ذلك كان من شغله. فهو سوف يدرس في غرفته المناقشات، سوف يتفحصها ويزنها، وأخيراً سوف يعطي رأيه الممهور بالعلم وسلطة الحاكم حول أصوات المجلس.

كان هذا هو الأساس سهلاً للغاية. وأطلق زفرة: «ولكنه محزن أيضاً».

خائراً أكثر مما مضى غادر القاعة، بعدما ودّع الحاكم التوأم الذي ظل متخلفاً في مركز الشرف، راسماً الطريق بنظرة التاريخ الشاردة الحنون.

مكتوب عند الإغريق القدامى، من ينظر كثيراً يصب بالعمى ومن يتحدث كثيراً يصب بالبكم. على الرغم من أن عمر هذه الحكمة أكثر من ألف عام فإنها تبدو بنت اليوم. ولكن هل تعرفين أن اليونانيين أنفسهم، وهم الذين دونوها على شكل خرافات وأساطير، لم يكونوا قادرين على اتباعها. فهم بالذات، هم الذين كانوا أذكياء، وذوي نظرة بعيدة، ماتوا تحت وطأة الأساطير التي كانوا هم أنفسهم قد اختلقوها فبدلاً عن الأساطير أود أن أقول الصور - الصور التي جهدوا عن طريقها وضع أنفسهم خارج الزمن وفي الأبدية هل فهمتِ يا ريتا؟

لنعد الآن إلى الحاكم: لقد زُعِمَ عموماً أن صممه هو الذي أدى إلى صمم الآخرين. فقد أصبح مكبر الصوت دكتاتورياً وأخذت منشأة الكلمات تعمل بميغاواط عالية، باختصار أصبح الضجيج عالياً إلى درجة أنه كان على المستشارين في القاعة المجاورة أن يصرخوا عالياً حتى يتفاهموا بعضهم مع بعض، وأصبحت اجتماعاتهم أشبه ما تكون بمشاجرات القرية.

ولكن لم يكن ممكناً جعل الدكتور الديناصور، بحاسة سمعه البريئة مسؤولاً عن هذه الفوضى المجاورة وراء الباب المغلق. كانت «الاجتماعات» تأتي مكتوبة إلى منضدته، سواء على بياض، من دون صوت أو صخب. كان يوافق أو لا يوافق عليها أيضاً، لأنه لم يكن يدور في خلده سوى أمر واحد هو أن يكرس نفسه بسرعة مرة أخرى لمنشآته.

وإذ أراد ذات صباح، خالي البال أن يستمع إلى نفسه، سقط فجأة اسم ما داخل المنشأة: بلوب!

مد ذراعه، محاولاً الانقضاض على الكلمة ليبيدها. ولكنها كانت قد أصبحت داخل الدورة، اندفعت فيها، انفجرت، ثم ترابطت مرة أخرى، في حين كان الشريط المثقوب يسجل:

تروفت.. توريف... بفورت.. ترويف...

ترويف؟ تساءل الدكتور الديناصور عما إذا كان هذا شفرة معادية.

ترويف... ترويف...

أصر الشريط المثقوب وهو يزحف على الأرض. وبعد ذلك:

ترويف... بروفت...

بروفت...

روفت... رررر... بوفت...

رررررررررررررررررر

إشارة وقفة، سهم.... نهب

«نهب؟» تساءل الحاكم بصوت عال ومس الشريط بأنامله. «من نهب ماذا؟»

ما كاد يلفظ الجملة حتى دوت إشارة الإنذار، معولة بصوت عالٍ، مهدد. وأخذ الشريط المثقوب يخرج بسرعة أكثر من الكومبيوترات. تدحرج فوق الأرض، التف حول رجل الدكتور واعتصره في يديه.

رويف... توريف...

فروبت... فروخت....

رررررررررررررررررر

إشارة، وقفة، سهم - خوف.

«خوف؟!» اغتاظ الديناصور الجبار الآن، أراد أن يخنق الأفعى التي لم تكن لتكف عن النمو؛ كانت تجر لوحدها إلى هنا وهناك كالمأخوذة أكثر فأكثر الحروف الخمسة المسمومة، لعاب وتوكسين كلمة «تربية». كانت الأفعى تزداد طولاً باستمرار، مع إشارة الإنذار، تتأفعن صاعدة نحو الحاكم وملتفة حول قبضتيه.

خوف.... خوف....

فحّت وواصلت زحفها من دون خوف.

فورشت.... زززز...
اوشزت... توخز...
اوشتز... اوشتز...
زززززززززززززززززززز
إشارة، وقفة، سهم.... تربية.

«تربية» دمدم الحاكم مغتاظاً. «تربية... خوف...»، فحّت الأفعى التي كانت لا تزال تواصل خروجها من فتحة الكومبيوتر، حيث احتلت فسحة كبيرة من الأرض.

كان الديناصور الأول حائراً تماماً، بل إنه كاد يخرج عن طوره. لم يكن في مقدوره ببساطة أن يعتقد أن كلمة مشغولة ومموسقة بكل عناية مثل تربية يمكن أن تتحول إلى خوف، بل وأن «تنهب» بعد ذلك.

أراد وقد أعماه الغضب وأخرجه عن طوره أن يهجم على المفتاح الكهرباتي الرئيس، حتى يضع نهاية لهذا الكابوس، ولكن الشريط المثقوب المشرّب بالسم لم يفسح له مجال الحركة وإنما أعاقه بكل عناد عن السير. ولكن عندما تمكن الديناصور أخيراً من الهرب إلى الغرفة المجاورة، كان يجر وراءه المتر بعد الآخر من هذه الأفعى الكلماتية الملتفة على نفسها.

أراد أن يتحرر منها ولكنه كان يتعثر المرة تلو الأخرى فوق دوائر من الورق والحروف الأبجدية والسم. ولم يعد يعرف، فوق أي شيء في الواقع. ولكنه إذ بلغ التمثال مد ذراعه الطويلة، طالباً العون. وفجأة أصبح عجوزاً وتمدد أمامه على الأرض - عملاق من التاريخ القديم، توشك عضلاته الجافة تماماً على الانفجار.

بآخر جهد فيه حرك جسده الثقيل حتى يتشبث بأخيه البرونزي. أفلح في لمسه، ولكنه إذ حاول أن ينقلب حتى يسحب نفسه عالياً وأن يحرر نفسه من هذا الموقف المهين انحرف التمثال -يا للهول- من دون انتباه إليه، كما لو أنه يفعل ذلك تأدباً، ومال سنتيمترين، تردد قليلاً ثم انهار فوق المعلم.

باتش!

عندما قدم حرس برج المفاتيح السبعة الذين كانوا في قاعة المجلس، اعتقدوا أنهم يدخلون ساحة معركة مازالت قائمة. كان الهواء ينبض بالخطب وعويل صفارات الإنذار، والأرض تهتز تحت الهجمات المريرة لأفعى الشريط المثقوب. كان الدكتور الديناصور ممدداً فوق الأرض، وقد هشمه شقيقه الأخضر، الأخضر، أجل الأخضر تماماً، بعيون محدقة، منطفئة. لم يعثر على أي أثر للدم وإنما فقط على زبد جاف، صبغه التمثال البرونزي بخضرة داكنة، كان يغطي وجهه.

«ليحل عليك السلام»،

تكلم القس المعاون إلى الحراس، مصلّياً.

الخاتمة

غطي بالخضرة. خضرة من خضرة التمثال، حاكم تحت حاكم آخر، كلاهما متجمدان من البرد وثقيلان بشكل لا يصدق. أكيد أن الحياة كانت لا تزال تنبض في جسد الديناصور الأول، بعض الشيء على الأقل، ولكن الأطباء كانوا قد أعلنوا أنه حالة ميئوس منها. ومع ذلك كانوا يريدون القيام بما في إمكانهم. أضف إلى ذلك أن هذا كان واجبهم.

«ينبغي عليه قبل كل شيء
أن يبدو كما هو في الصورة الفوتوغرافية»،

توسل المستشارون بعيون حزينة، مليئة بالدموع.

يسأل عقلنا الفضولي: لماذا ينبغي له أن يبدو هكذا؟ ربما، حتى يظل الشعب يحتفظ بذكرى عاطرة للزعيم. فعندما تمر به كل القواقع الدنيا المحتملة في مواكب، من أجل أن تلقي عليه تحية الوداع الأخيرة، لا بد لها من أن تلمح المحيا الجاد الهادئ، الخاص بكل الأموات المشهورين، ومن ضمنهم أولئك الذين في الكاتدرائيات. كان لا بد لصورته من أن تكون متكاملة، دون نقيصة أو عيب، من دون بقع كان لا بد لها من أن تقاوم القرون، كميدالية تذكارية بوجه ببروفيل تعجز أسنان الزمان عن الإضرار به. وقال المشرف الأعلى الشاب أبداً، إنه بالإضافة إلى ذلك سوف يكون من الخطر وقوع المفاجآت بالنسبة لأي حشد يقوم بتوديع شخصية مهمة. فالمرء لا يمكن أن يعرف أبداً، لا يمكن أن يعرف أبداً...

مثل خفاش من المخمل، يحرس الظلمة، كان يعرف أيضاً البيت الأكثر اختفاءً في المملكة. وقد ذكر مؤكداً أنه يملك حتى نسخاً أخرى من المفاتيح. ما من أحد كان يستطيع أن يضمن له، هو المشرف العام، أن الأهالي إذا ما وجدوا أمامهم في النعش حاكماً آخر غير ذاك الذي كانوا يعرفونه من الجرائد والأختام والتماثيل، ما من أحد يستطيع أن يضمن له أن هؤلاء الناس الصغار الطيبين، السذج، لن يشكوا بعض الشيء من أن غريباً سوف يدفن في قبر الحامي المحبوب. وقد شدد على ذلك بالقول إن هذه ليست هي المرة الأولى على أي حال. فالثورات والمجازر والفوضى كانت في معظم الأحيان بسبب دفن غير مفحوص بدقة، لأن أي حشد بشري في جو الدفن يكون مثيراً للخوف. مثير للخوف - كما يشير إلى ذلك دليل التعليمات، وهو أمر يعرفه كل مبتدئ. عن البارومتر ليرتفع سريعاً عند هؤلاء الناس، مشيراً إلى العاصفة، بحيث إنهم يهتاجون، كمن لدغته عنكبوت سامة (هكذا يقال في اللغة العامية للقواقع الدنيا).

«أجل، أجل، كما في الصورة، كما في الصورة»،

قوقأ المستشارون، خوفاً من العناكب السامة.

ودأبوا يبحثون عن حاكم جديد.

خفض أفضل الأطباء وأذكاهم رؤوسهم: حسناً، لا بد من تجربة كل شيء. طلبوا معونة فنان الجراحة في إقليم الدكاترة وتناقشوا معه، طالبين هذا ورافضين ذاك، حول ما قبل وما بعد، وعندما اتفقوا -واحد، اثنان، ثلاثة-، هجموا -شنووب- على جسم الديناصور. والأصح أن يقال على الشيء.

إنذار عام

من مكان إلى آخر أعلنت الأجراس الخبر السيئ في كل المملكة. كان المكان يضج بالأطباء المحيطين بالرجل، نصف الميت، ولكنهم كانوا قد أنذروا بأنه لا يوجد سوى أمل قليل - وأخيراً وليس آخراً بسبب الذباب.

استجلبوا علماء أجانب، بسبب الذباب، بسبب الذباب، حيث أخذوا يتصببون دماً ودماءً ويقولون المرة تلو الأخرى: «سوف نرى بالتأكيد، سوف نرى بالتأكيد.»

وفي ندوات الشعراء نظمت المآتم وأقيمت الهياكل أمام صورة الحاكم وألقيت الخطب، خطب فوق خطب. أنشدت قصائد وداع وسكبت دموع رصينة. وأعلنت الصحف بحروف بارزة: شعوب عظيمة - خطب عظيم.

بعيداً عن العاصمة كان سكان الغابات الخلفية قد أدركوا أنهم سوف يدعون إلى التشييع: تساءلوا وهم يحدقون بعين موجهة إلى التقويم وأخرى إلى حقول الحبوب، عما إذا كان ينبغي عليهم ربما القيام بهذه الرحلة في لحظة غير مناسبة بالذات. في الدوائر العامة كان المرء يتأوه بعمق: خطب فوق خطب، لو أن الموت يحل على الأقل في يوم كذا أو كذا، بحيث تطول عطلة نهاية الأسبوع. التجار استشاطوا غضباً: أيام الحداد لا تفيد إلا القليلين. السجناء علموا بالعفو العام والأخوات المترهبات بالمبعوثين الأجانب في القُدّاسات الفخمة. الأطباء وحدهم لم يكونوا يملكون أوقات فراغ أو مخططات.

لقد اشتغلوا مئة نهار ومئة ليلة على الحاكم الذي كان يقبع صابراً على الحدود ما بين الحياة والموت. فتحوه، ثقبوه، واستبدلوا ثم خاطوه. كانوا عباقرة حفّارين، سحرة بصدريات بيض، كانوا فيها كما لو أنهم يمتلكون أجنحة، يرفرفون حول الديناصور، بمطارق صغيرة وثاقبات فضية دقيقة، بخيوط وملاقط حشرات. استأصلوا حدباته وقصروا ذراعه الطويلة؛ وفي اليوم المئة توقفوا، من أجل مراجعة كل شيء والاستماع إلى الآراء. لم يستسلموا.

مئة نهار ومئة ليلة، ليس هذا لعب أطفال، ومع ذلك عادوا مرة أخرى إلى العمل من دون كلل، مرة أخرى مئة يوم وبعد ذلك مئة يوم أخرى، وفجأة انتفضوا مذعورين: بدأ الجسد يستيقظ، ينهض.

«لقد بُعث!»،

صرخ الكهنة في كنيسة القلعة. ارتطم المستشارون بالجدران، كما لو

أن كلاباً تطاردهم، ذلك لأنهم قد نصّبوا حاكماً آخر. ثم استعادوا رباطة جأشهم مرة أخرى وحدقوا بعضهم في وجوه بعض، وكانت في شحوب وجوه الموتى: ماذا الآن؟

هيا إلى الأمام، لتظهر سحنة طيبة إزاء لعبة شريرة.

وضع الجراحون أوراقهم جانباً وألقوا بالصورة الفوتوغرافية الرسمية التي استنسخوها بكل عناية، في إحدى الزوايا.

«إلى الشيطان!»

ففي حين كان الأطباء الآخرون يبذلون قصارى جهدهم من أجل إعادة الحاكم مرة أخرى إلى الحياة، كان هؤلاء الجراحون منهمكين بما هو خارجي، وبكلمات أخرى كانوا قد نشطوا في منحه هيئة ميت وكان هذا قد تطلب الكثير من العمل الذي أجهدهم. وقد شعروا الآن بالخيبة والغضب، يغمرانهم. وكانوا يدمدمون بعضهم لبعض: «كل هذا الجهد والعمل كان عبثاً».

والآن إذا كان الحاكم قد بدأ بالحياة مرة أخرى، كما بدا في الظاهر، فقد كانت هناك بالتأكيد المرايا المروضة وكذلك الصحافيون والتلفزيون، من أجل تصحيح صورته. وقد تساءل فنانو الجراحة، هل كان هو حقاً بالفعل أم لا؟ هل كان هو نفسه، ذاك الذي أعطى الإشارة الأولى، بحيث بدأ الدماغ والدورة الدموية بالعمل بصورة طبيعية - أم إنه لم يكن هو؟ وفي آخر المطاف كان عليهم أن يعملوا من أجل موته، لا من أجل حياته. وبطريقة ما شعروا أنهم قد

غُدروا!

وكان ذلك سيئاً للمستشارين، سيئاً إلى ما لا نهاية. لم يعودوا يعرفون إلى أين ينبغي لهم أن يجرجروا أنفسهم. فقد نفضوا عن أنفسهم الريش وأخذوا يتهامسون في الزوايا، تعذبهم لسعات الضمير، ذلك لأنهم كانوا قد وضعوا في رؤوسهم أفكاراً منحوسة عن تنصيب حاكم آخر على العرش:

«من الثابت أنه ما كان يمكن لأحد
أن يتوقع مثل هذه المعجزة
الأكثر فخامة...»

«تماماً. فقد وضعت العناية
يدها مرة أخرى على زعيمنا
المحبوب كثيراً».

قال المنتسبون إلى فصيلة الحاشية من الدا-ليين، موافقين. وفي أثناء ذلك رفع الكاهن الأعلى ذراعيه عالياً نحو الغيوم وراح ينادي من دون انقطاع:

«أيها البعث! أيها البعث!»

وأخيراً أسلموا جميعاً أنفسهم للدعاء القوي «ليتمجد الرب»، شاكرين الله الذي حفظ لهم دكتورهم الديناصور، ضوء الوطن ووكيل بناء القرن (طبقاً للدا-ليين). عمود النظام (طبقاً لرؤساء مختلف الطوائف)، الأب ومثال العائلة (طبقاً للأمهات الشكورات)، آمين (طبقاً للقساوسة).

كل شيء جميل وجيد، كل شيء جميل وجيد، ومع ذلك كان المستشارون يتمنون لو أنهم علموا -وهذا هو جوهر الأمر- ما إذا كان المعلم سيتحمل فكرة أنه قد استبدل. ولنعترف علناً أنهم كانوا مرعوبين بسبب ذلك. لقد افترضوا -وقد كان هذا افتراضهم الشخصي البحت-، أن الدكتور الديناصور سوف يعتبرهم ناكرين للجميل وأنه سوف ينتقم منهم، حتى من دون أن تكون السلطة في يديه. فمع شخص في مثل قوته ينبغي على المرء أن يتحسب لكل شيء؛ ولذلك عذب المستشارون المداحون أدمغتهم من أجل أن يستخرجوا منها فكرة ما.

وأخيراً استخرجوا فكرة. أرادوا أن يسلكوا إزاء الحاكم، كما لو أنه لا يزال يجلس على العرش. كان على ماكنة الكلمات أن تواصل تنظيف القواقع الدنيا وعلى الدكتور أن يمتطي الحروف الكبيرة للصحف. وفي كل

الأحوال ما كانت التماثيل لتمس، فهي فن بالتأكيد! وعلى العملات الورقية كان خيال صورة الحاكم مخلداً، كما على العملات المعدنية. بكلمة أخرى، ظل كل شيء في آخر المطاف على ما كان عليه. وبهذا، كما قرر رجال الحاشية المذكورون أعلاه، ضمنوا أن يسير المواطنون على دربهم الذي رسم لهم في الفصول المضببة للتاريخ.

إن الناس، يا ريتا، يصنعون لأنفسهم صورة معينة عن الموت، وبالتأكيد، هكذا أفكر أنا، تلك الصورة التي تتركها لهم حياتهم الخاصة. فعندما يضع المرء قناعاً فإنه يفعل ذلك حتى يخفي وراءه وجوده. ولكن الأسوأ من ذلك، أن يعبر المرء الحياة بقناع موتى: إذ ذاك سنكون أمام شبح.

فهذا، وانتبهي لذلك جيداً، شبح في إهاب «كائن حي». ولكن عليك أن تقرأي الباقي لتعرفي إلى أين أشير.

عندما استيقظ صاحب العمادة الديناصور ورأى نفسه محاطاً بناسه الأشراف المألوفين، طلب مرآة قبل أي شيء آخر. تفحص نفسه ولمس وجهه - ثم تعرف على نفسه مرة أخرى. وأثر ذلك قال بصوت، لا يكاد يستبان:

«هذا الأسبوع يعقد اجتماع المستشارين»،

تقدم أَفْقَهُ الجراحين خطوة إلى الأمام، من أجل أن ينصحه بالاستغناء، رويداً، رويداً! ومع ذلك همس له الحاكم:

«هذا لا يضر شيئاً، يجتمعون
من دوني، سوف أقرأ فقط
التقارير».

وبذلك حلت النهاية. فقد صرفهم جميعاً، بعد أن أفهمهم بحركة من يده، أن يتركوه يخلد للراحة.

سدوا أفواهكم!

ولكن المستشارين لم يعودوا بعد في هذا الوقت مستشارين، لأن الحاكم الجديد كان قد أقالهم بكل بساطة. بل إنه جرى نقل بعضهم إلى مدن المحافظات التي كانوا قد جاءوا منها.

«ولكن ليس لفترة طويلة...»،

دمدموا، آملين بحدوث انقلاب.

وعندما تبين الآن أن الحاكم لم يكن ميتاً قط، أعيدوا في آخر لحظة، للإيحاء بأنهم ما زالوا مستشارين، حتى لا يصدم الأمر معاليه. من أجل شرف الحقيقة: أنهم أطاعوا رحمة، فقد كانوا بعد كل شيء دا-ليين خُلّصاً بالتأكيد، تربوا على مبادئ الأدب والنظام. النظام، كما كانوا يلفظونه، مؤكدين على المقاطع، النظا -م! واحد- اثنان... نظام!، يمين - يسار.

أسبوعاً بعد آخر كانوا يأتون إلى العاصمة من أعماق البلاد، مخلفين وراءهم النساء والأطفال من أجل أن يلعبوا دور المستشارين في اجتماعات أزمنة ماضية. كان بعضهم قد أصيب بالروماتزم في أصابعه، لأنه كان عليها طيلة سنوات كثيرة أن تمس الإسفنج المبلل وأن تقلب الصفحات المليئة بالخطب. وكان ثمة آخرون يكادون يُجَرّون إلى الأرض من ثقل قد جاءوا ليوافقوا، بسبب طاعتهم للنظام. وقد كرروا «النظام!» من أجل أن يكونوا مسموعين. «النظام أيها السادة!» كانوا يحملون أجهزة سمع، علامة شرف موصلة بسلك صغير نابض، كانت تعتبر بمنزلة نوع من الأوسمة. الميداليات. وكانوا جميعاً من دون استثناء صمّاً (كان هذا هو الثمن، وشم المعارك المريرة التي كانت تجري حول تلك المنضدة أثناء خطب المعلم المدوية في الغرفة المجاورة). كانوا

«افتتحت الجلسة،

يا أصحاب الفخامة»،

بدأ الصوت المسجل للحاكم؛ وعندما انتقلوا إلى جدول الأعمال فتح المستشارون السابقون محافظهم. كانوا قد عادوا إلى الاجتماعات المجيدة، إلى الماضي. مع فارق، أن الخطب والجلبة الآن في الغرفة كانت تدوي عبر طنين أجهزة السمع، طائر الكناري هذا.

بيب... بيـ... بيـ...

طنين وفن خطابة، بيـ -زز م م م... فن خطبة، تصفيق، آه أيها الوطن... بيـ- زز م م م، هكذا كانت تنقضي الاجتماعات. المحادثات السرية، أناشيد الذين أصبحوا صماً والذين لم يكونوا يملكون حتى صحيفة نوطة، من أجل أن يكونوا قادرين على إيجاد التناسق فيما بينهم. كانوا هناك، لأنهم أمروا بذلك، وما عدا ذلك كان الأمر يعني:

«سدوا أفواهكم!»

من المعروف أن الشخص الذي يصبح أصم والذي يغني كثيراً يقتنع بأنه يمتلك صوتاً جيداً، وقد حدث تحول مماثل عند أولئك المستشارين السابقين الذين لم يكونوا صماً فقط، لأنه كان عليهم أن يعملوا بتوتر واطئ. وفي نهاية المطاف كانوا يريدون أن يقولوا إنهم عندما يجتمعون عند التمثال يكونون مستشارين فعليين وينفذون رسالة عظيمة، بل رسالة

تاريخية،

في الواقع! كانوا يعملون مثل المستشارين، ويرتدون الملابس مثل المستشارين. وكانت عندهم أضابيرهم وامتيازاتهم الذهبية - هل بقي هناك أي شك؟ زد على ذلك أنه كان في إمكانهم وبحق كامل اعتبار أنفسهم ممن لا يُستغنى عنهم، إذ سواء كانوا الآن مستشارين أم لا. فإن الحاكم الجديد لن يستدعيهم في كل الأحوال، هكذا كان عليه الأمر الآن.

عندما كان كومبارس المستشارين يعمل في الخفاء (وهو دليل ثقة كبير

للغاية، لم يمنح من دون شك لأي من حملة البكالوريوس السابقين) حصل أفراده لأنفسهم على الضمانات والهويات والمناصب الرفيعة والميداليات وامتيازات أخرى، لا يعلم بها إلا الله؛ لقد استحقوها في وهمهم، دون أن يجهدوا أنفسهم للحصول عليها - فقد كان الأمر قضية سلوك. وما عدا الرئيس الجديد ونصف دزينة من أهل الثقة المختارين بعناية لم يكن أحد يعرف دورهم، دور مستشاري الظل، شخصيات الكتاب الأبيض. كانوا ممن لا يستغنى عنهم، وهو أمر لا يمكن التشديد عليه كفاية. كانوا ممن لا يستغنى عنهم، لأن كلاً من الحاكمين كان يحتاج إلى خدماتهم المتواضعة، أحدهما لأسباب متعلقة بالدولة والآخر لأسباب صحية. جملة القول: أنهم كانوا مستشارين كونيين، وعليهم القيام بوظيفة خطرة وسرية. وقد فرض المستقبل، أن تلم العدالة بمغامرتهم في القصر، كما جرت العادة على الحدوث مع شخصيات الكتاب الأبيض.

لقد أربكت حواسهم تماماً نفحة بقالة الأسرار وكذلك أن يكون المرء على صلة بالمعلم. كانوا يعيشون في مملكة ذات وجهين: كان أحدهما هو الذي يمارسون فيه تجارتهم والذي خلفوا فيه نساءهم وأطفالهم وراءهم، أما الآخر فكان وجه زهد الحاكم، ليوضعوا فقط هم والتمثال، حيث يناسبهم. ونظراً لأنهم كانوا في رحيل دائم بين هذا وذاك، اليوم الدكتور ديناصور وغداً عالم فعليّ، أضاع السادة القدامى الاتجاه وسقطوا في نوع من حالة التيه.

مرت الأعوام، استفحل صممهم، ضعفت أبصارهم، ووضعت حجب أمام أبصارهم. ومع ذلك واصلوا عملهم بعزم وبكل سرية، إذ لم تكن رسالتهم لتسمح لهم بأية فرصة للراحة كان التمثال ينتظرهم - في الوقت المحدد تماماً.

كانوا قد هيأوا أنفسهم. السماعة في الأذن التي كانت صماء مثل حجارة، والإضبارة المعدة جيداً تحت الذراع، كانوا يسافرون موجهين من بعيد بين العاصمة وإحدى الشبكات الإقليمية البعيدة ذهاباً وإياباً. وفي دواخلهم كانوا يحلمون أن يسمعوا كلمة من فم المعلم، ولكن أتراهم يحظون بهذه السعادة؟ أمل مغدور. كانت كلمة المعلم تصلهم دائماً وهي مثبتة فقط على الشريط أو الورق:

«ينبغي على كل واحد أن ينفذ
الواجبات الموكلة إليه»،

كانت هذه الجمعية العجيبة تعمل حتى ساعة متأخرة من المساء، تحت إمرة الحاكم البرونزي. وكان المستشارون السابقون قد اعتادوا الذهاب إلى أعمالهم، حائرين ومتهيبين، تماماً مثل سراة في النوم، ملتزمين بالعرف - وكانوا يفهمون بعضهم الآخر أو على الأقل تقريباً. وعندما كانوا يبتدعون في مناقشاتهم الحيوية القائمة على الصراخ والتلويح بالأيدي آراء وقوانين وتقارير، كان من الأفضل أن ينساها المرء في الحال، فإنهم كانوا يحاولون بمساعدة أجهزة سمعهم العثور على الاتجاه في ضباب صممهم وعجزهم.

«بيـــ... س س س س... انتباه... بيـــ..
ارجو السماح لي بالكلام،
أصحاب الفخامة... بيـــ..»

كانوا مرتبطين مع بعضهم بنفس التيار - واحد، اثنان، ثلاثة، كان ذلك كله نفس الضباب، ويا له من ضباب.

في الأرض الحرام

عندما كان المستشارون الأصيلون يريدون معرفة ما هو جديد من الدكتور الديناصور كانوا يتوجهون بافتراضاتهم وأسئلتهم المنافقة إلى القدامى في قاعة التمثال. ومع ذلك فإن المستشارين السابقين ما كانوا ليسمحوا لأنفسهم بأن تنطلي عليهم الحيلة.

«رجل مثير للإعجاب. إنه
لا يزال معلماً أعظم من
ذي قبل».

وكانوا ينتفخون غروراً، بسبب أهميتهم، بل إنه كان حتى يبحث عنهم

ويستمع إليهم، أجل لقد ثبت أنهم لم يكونوا قط موضوعاً للتندر، مثلما تدعي الألسنة الشريرة.

«مثير للإعجاب. لقد عثرنا فيه
على معلم إلى أبد الآبدين»،

هكذا كانوا يزعمون مصرين، من أجل تخويف الآخرين أكثر فأكثر. بل إنهم ذهبوا إلى حد أنهم باحوا للمستشارين الأصيلين تحت الختم الملزم بالصمت، أن الدكتور الديناصور كان في الآونة الأخيرة معافى ونهماً أكثر من أي وقت آخر (ومفهوم أنه كان نهماً تجاه الكلمات). وفخوراً، بل وفي أعلى درجات (الفخر الذي يكمن في دمه) وحديدياً، طبقاً للشعار: لكل ما جنته يداه.

هكذا كان المستشارون الأصيلون يحشرون ذيولهم بين سيقانهم، وينصرفون حتى المرة القادمة. ولكن ترى هل يمكن أن يغفروا لمن كان يعتبرهم حمقى، وهو ما سمعوه تماماً؟

بديهي أن القدامى حاولوا بهذه الحكايات أن يجعلوا من غرمائهم حمقى. ولكن الواقع أثناء ذلك لم يكن قط مثيراً للمزاح؛ ففي الفرص النادرة التي كان يتاح لهم فيها شرف رؤية فخامته تأكدوا من أن جسده لم يعد يستجيب، لا للتأثير المسهّل للقواميس ولا للأساليب المقوية للخطب. فقد ارتخى ظهره، منذ أن اختفت الطبقة المحدبة السميكة واعوجّ بعض الشيء وتدلت الساقان، كما لو أنهما فقدتا الحياة، من الجسد، ولهذا صار المعلم الآن يُقاد باستمرار داخل الكرسي السيّار. وعند هذه النظرة تخيل المستشارون السابقون بأي سرعة سوف يخرج منطلقاً إلى صيد الكلمات. ليحفظ الله له هذه البهجة المتواضعة. الشر الأصفر.

وما عدا ذلك كانت الحياة تسير في مجراها الطبيعي في برج المفاتيح السبعة. هناك كانت المرايا. هناك كان التلفزيون المفتوح على قناة خاصة، تبث عروض أسبوع من الزمن القديم. كان ملائكة سيرافيم الصلع (الدا-ليون الطلائعيون في مرحلتهم الراهنة) يتألقون على الشاشة وفي الصور الفوتوغرافية للجرائد، وكان محافظ جزيرة البيتين (المحال منذ فترة طويلة

على التقاعد، ولكن ماذا يهم ذلك الآن) لا يزال يطالب بعملة معدنية نافذة للأهالي. كالعادة.

كان الدكتور الديناصور يكافح برأس مطأطأ ولكن بشجاعة ضد سوء طالعه. ومن أجل استئصال الكلمات كان يدحرج نفسه جيئة وذهاباً على كرسيه السيّار بين منضدة الكتابة والمفتاح الرئيس، بين الغرفة الصغيرة والأخ البرونزي - س س س س ت، ولم يكن ليتحدث مع المستشارين إلا نادراً وعلى سبيل الاستثناء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أجل!»

كانوا يردون محنين رؤوسهم.

«حسن جداً، أيها المعلم!»

كانوا يسرعون إلى القول، لأنهم كانوا يعرفون تماماً أنه ما من شيء يمنع الكرسي السيار من السير. فقد كان فخامته ينبوعاً حقيقياً. قوس قزح. كان يذكر بآينشتاين أو يوم القيامة، على الرغم من أنه كان فردياً بطريقة غريبة وملحاً دائماً وأبداً على أحداث من الماضي، على التوافه. وكان يسأل: «وفلان؟» و«سيكرانو؟».

«أرجوكم أن تعدوا مذكرة،
لا تنسوا ذلك.»

كان فلان قد أصبح على الأغلب تحت الثرى منذ زمن طويل، لتحل على روحه الرحمة. وبيلترانو كان قد هرب مع كاتبة اختزال، بحيث لم تستطع عصابة من الكلاب البوليسية اقتفاء أثره. أما الدكتور سيكرانو فقد طاف على مستشفيات المجانين، لحيرر نفسه من لوثته عن طريق رواد الفضاء، وكان جسده المخدوش جرح قمر وحيداً. مظاهر شيخوخة، كآبات، مصائب، كان من المستحب إخفاؤها. ولكن نظراً لأنه كان من واجب وظيفتهم، أن يحبوا الحاكم، فقد أعد المستشارون الذين لقنوا:

سدوا أفواهكم،
سدوا أفواهكم دائماً!

المذكرات وأناشيد المديح للأموات، معتذرين مرات كثيرة عن التأخير. وكان المرضى والأموات يقلدون وظائف لم يعد لها وجود؛ كان الضباب يتراكم والغسق يهبط. لم يعد برج المفاتيح السبعة برجاً وإنما مائدة فطر، تتحلق حولها أشباح، تحركها خيوط مرئية، يمسك بها العجائز التائهون. بست! سدوا أفواهكم!

حالما انتهى الاجتماع اعتبر دور المستشارين منتهياً أيضاً، إذ كان هذا هو الشرط الأساسي في الاتفاقية. فعندما كان اثنان من المستشارين السابقين يلتقيان خارج العمل، كان السلك الهوائي يبدأ بالذبذبة فوراً؛ وعلى الرغم من ذلك فإنهما ما كانا يتجاوزان التحية الاحتفالية قط، التي كانا يؤديانها بود ودهشة، هكذا تقريباً:

«يا لها من مفاجأة أن أراكم.
مسر جداً، يا صاحب الفخامة».

وكانا بعد ذلك يغمغمان بالاعتذارات -«عن إذنك، الزمن يضغط»- ثم يسرعان.

كانوا يتنهدون: «حياة مزدوجة» -طبقاً لكلماتهم- (وبالطبع ليس من دون كبرياء، عندما كانوا يفكرون في الدبلوماسيين السريين للكتاب الأبيض)، حياة قائمة على المعرفة والكتمان. يا لها من حياة!

لسوء الحظ كان المستشارون مثقلين بالعمل، حتى إذا لم يكن ذلك يبدو كذلك منذ الوهلة الأولى. فنظراً لأنه كان ينبغي عليهم أن يلتقوا غالباً حتى يقدموا الحساب بعضهم لبعض عن المهمات التي أوكلها المعلم إليهم، فقد استهلكوا زجاجات نظاراتهم وبطارياتهم وبقية فانتازياهم، المساكين! وكان أحدهم وهو ممن عهد إليه أن يستجلب مالاً جديداً إلى السوق، قد رأى نفسه مرغماً على التعامل مع مزوري النقود الذين كانوا يعيشون في مكان

ما في الحجرات فوق السطوح، حتى يحصل على كمية من النقود الورقية والمعدنية التي تطابق تصورات الدكتور الديناصور. وكاد آخر يحترق تحت جهاز الأشعة الشمسية، لأنه أراد أن يقدم الدليل، على أنه قد اشترك طواعية في رحلة استكشاف استوائية (على الرغم من الشمس القاتلة التي تشرق في هذه المناطق). ولكن ثالثاً، ينحدر من «ديناميكا» أصاب حظاً أفضل. فقد عهدت إليه مهمة إقامة سد، كان ينبغي له أن ينجز قبل سنوات. سُعد في شؤم: أوقفه الحاكم الجديد خلال بضعة أشهر على رجليه، وهكذا لم تعد ثمة مشكلة أمام المستشار السابق. فقد أسرع في الحال، حيث كان العمل المصور في لمح البصر يقبع فوق منضدة كتابة المعلم.

«جيد»،

كان ذلك كل ما قاله.

ومثلما في كل المهن كان هناك أيضاً الحظ وسوء الحظ عند المستشارين السابقين. كانت تسند إلى البعض واجبات سهلة لحلها بينما كان يفرض على آخرين كسر الجوز الصلب. كان يمكن للمرء أن يبتكر المشاريع ومسودات القوانين ولكن عندما كان الحاكم يضع على طاولة الاجتماعات مشاريع لإنشاء الشوارع وبناء السفن وكذا من الأفكار المصنوعة من الحديد والأسمنت، فلم يكن شيء منها يتحقق. وأخيراً كان ينبغي الاستماع أولاً إلى التقنيين الذين كانوا يؤمرون بالمناسبة، بتجنب أي لفت للأنظار وعدم البوح بالسر في ظل كل الظروف.

ونظراً لأن المستشارين كانوا يستطيعون أن يتصرفوا بسرية فقط، فإنهم كانوا مرغمين أن يقرعوا، الواحد بعد الآخر، على أبواب الاختصاصيين المخولين المختلفين، طالبين المساعدة حول الشؤون الحساسة. كان عليهم أن يبلغوا هذا وذاك بما هو سري، مما أدى إلى

فوضى كاملة،

ذلك لأن الاختصاصيين منطقياً كانوا يعملون هم أيضاً للحاكم، بل قاد الأمر في شؤون عدة إلى نوع من التجارة السوداء بين مملكة أو (برج) الزاهد

والمملكة الفعلية الصحيحة. وفي آخر الأمر بدأ المرء يتساءل، أين يبدأ هذا وأين ينتهي ذاك.

الآن، وفي هذا الموقف المربك كان المستشارون يتراكضون حائمين مثل فئران متخمة، ذات عيون متوهجة. أجهزة سمعهم تغني في آذانهم، واعدة إياهم كذباً بالربيع.

يروي التاريخ أن الديناصور الأول في الساعة كذا، حسب التقويم المحلي لإقليم الدا-لبين احتضر وقضي عليه بإصابة في الدماغ. وفي اللحظة ذاتها كان قد نُسي، أنه كان إلى ما قبل قليل حياً ومستعداً للعمل. انتهى!

عندما كانت القواقع الدنيا البسيطة تشيعه بنظرة وهو في تابوته الزجاجي كانت تهز رأسها. فقد وجدته يشبه الصورة إلى درجة لا يمكن أن يكون فيها كل ذلك حقيقياً. (وهكذا فإنهم تصرفوا بطريقة مغايرة تماماً لما كان المشرف الأعلى قد قاله مسبقاً والذي لم يكن يرغب في أن يكون للمعلم وجه ديناصور، وبالطبع ينبغي على المرء ألا يستبعد، أن القواقع الدنيا كانت عنيدة دائماً ويمكن لها أن تكون كذلك..) ونظراً لأن الجثمان ظل يعرض طيلة أيام كثيرة في المملكة، فقد رأته القواقع الدنيا ذاتها فيما بعد عن قرب جداً، مما جعلها، مدمدمة باحتقار (كالمتآمرين) تتبادل نظرات ذات معنى فيما بينها. ما كان في إمكان أحد أن يخرج من رؤوسها مرة أخرى: أن الحاكم كان قد استبدل! فما رأته هناك كان قناعاً وليس أبداً إنساناً، كان أكبر عمراً بعدة عقود من الزمن مما هو عليه في الصورة الفوتوغرافية، بل وربما بقرون.

أدارت ظهرها مولية مثل ديكة رومية مستاءة. وعندما أخذت طريقها المعتاد إلى البحر، تنفست أمهات المملكة الشكورات الصعداء، محتفظات بوقارهن، وفي اللحظة ذاتها أعطى المشرف الأعلى إشارة إلى الخنافس، للتسلل وراء القواقع الدنيا والتجسس عليها، في حين كانت الأخوات التقيات الـدرداوات، وهن جلد وعظم فقط، يوبخن القواقع الدنيا على سلوكها، كن ينتقدن حزينات، هازات رؤوسهن:

«ما من تربية، أي ناس هم هؤلاء!»

أوضحن أن القواقع الدنيا تصرفت أسوأ مما تفعله الحيوانات. وأنها مخلوقات غير صالحة. عفاريت. أرواح منحطة. بل وربما ماسونيون. ولكن عفاريت في كل الأحوال - أعدن ذلك في أفكارهن، وهن يُسقطن حبات مسبحتهن مصليات، يا أبانا الذي، سلاماً يا مريم.

بسبب الفضول تجاه الموت، كان المسيحيون الذين يهابون الله حقاً، وفي مقدمتهم العجائز الذين هم على وشك أن يدركهم يوم القيامة، يتولون حراسة الموتى. كانوا يفعلون ذلك راغبين، لأنهم كانوا ينفذون بذلك عملاً من أعمال الرحمة. زد على ذلك أنه كان يعتبر واجباً وطنياً، يحظى باحترام الجميع - عندما كانوا يقدمون التكريم الأخير لأحد الموتى، برضا كانوا يستمتعون باللحظة الوحيدة التي كانت تمكنهم، وهم الأتباع المحتقرون المهملون، من الوصول إلى كبار الأرض، بسبب المساواة في الموت والغفران.

كانوا قد زحفوا من الجبل الذي انسحبوا إليه، بسبب الحزن والصلوات والنعاس واتجهوا نحو التابوت. مندهشين راقبوا الجثمان الذي لا زمن له. الملامح المنظمة، المسطحة لوجه هذا الأخ المتصوف الذي كان يتمدد في نعشه، عارضاً موته المقدس. (كان المبشر أتا - كروز قد قارنه بالملوك المحنطين الذين لا تستطيع الديدان والتربة أن تضيرهم في شيء؛ وكانت الأخوات التقيات يتقربن بورع من التابوت، كما لو أنهن يقمن بزيارة أثر تذكاري، ويفكرن معجبات: أنه يعود إلى البداية، إلى الشباب بعد الموت)، وبعد ذلك كن يقمن محترسات بإمرار إصبع واحدة فوق الغطاء الزجاجي، ثم يرفعنها بتأن إلى الفم ويقبلنها، مصلبات من الجبين حتى الصدر.

موقف عجيب: لقد وجدت الأخوات الورعات والقواقع الدنيا نفسها، من دون أن تعلم في وضع مشابه، فقد اعتبرت الفئة الأولى مثل الأخرى جثمان الحاكم بمنزلة نفي للإنسان الفعلي - أور بما لا؟ كان بالنسبة للفئة الأولى سر القداسة، وبالنسبة للفئة الثانية سر القصر، فإذن هو لم يكن في نظر الطرفين أكثر من سر. وحتى اليوم لم تتوفر أي إشارات أو وثائق، تستطيع أن توضح ما هو حقيقة وما هو كذب في موت الديناصور الأول، المعلم المعظم.

ولكن حتى إذا ما وجدت مثل هذه الوثائق، إذا ما قدّم جراحو الوجه على سبيل المثال قائمة حساب عن عملهم للرأي العام أو إذا ما وقعت شلة رجال القصر في الغباء، بحيث تكشف أسرار برج المفاتيح السبعة -

فمن يمكن أن يصدقهم؟

وطبقاً لكل المظاهر فإن الحذر كان شعار الدا-ليين الأكثر أهمية. ما كان يمكن لشيء أن يكون أكثر ذكاء من جعل كل شيء يضل سبيله في الرمل، وبالأخص أصوات القواقع الدنيا في إقليم الدكاترة التي لم يكن ينبغي لها أن تصعد إلى السماء. كان المرء يستجيب لها عندما كانت نفسها بعناد كمواطنين (مواطنون -تصور ذلك يا رجل!)، في حين أنها لم تكن سوى سكان سواحل، مشدودين إلى صخورهم. لقد أوضحت، حالفة أغلظ الأيمان، أن فخامته لا يزال على قيد الحياة، ومن أجل دعم ادّعائها بالحجج أكدت أن منشأة الكلمات في برج المفاتيح السبعة قد ازدادت اتساعاً وأنها تعمل بنفس الجنون مثل السابق وأنه قد اجتمعت ليس بعيداً عنها حفنة من الأشخاص المنحلين، بملابس مهلهلة وزجاجات نظارات مكسورة، أشخاص يبدون كما لو أنهم فقدوا كل عمر وأنهم الآن مستشارون في الأبدية. عمياء مثل حيوانات الخلد، من دون حس أو فهم، كانت تستغيث عبر المائدة بالأصوات القادمة من العالم الآخر، ببعابع محاكم التفتيش، بمحاربين ذوي أرجل من حديد، بأساقفة لم يكونوا قادرين على الجلوس براحة بسبب الديدان الكثيرة- خطب لا تريد أن تنتهي، تلقى أمام الحاكم البرونزي.

ذي القناع،

كما كانت القواقع الدنيا تسميه، مشيرة إلى تماثيل لا عد لها في المتنزهات والشوارع المشجرة، حيث كان الدكتور الديناصور يُلقي من علٍ نظرة جليدية على العالم.

كانت الأجيال تأتي وتروح - ودائماً كان الآباء والأمهات يذكرون أطفالهم بالتماثيل التي كانت تحرس المملكة.

«هذا هو ذو القناع»،

كانوا يهمسون بذلك لذريتهم التي كانت توصلها هي الأخرى بدورها لذريتها التي كانت تقوم مرة أخرى بإيصالها إلى الذرية التالية وهكذا دواليك...

لنقف عند هذا الحد يا ريتا، وإلا أصبحت الحكاية أطول مما ينبغي ومكررة، اطوي الكتاب، ضعيه بعيداً، واقذفي بالأشباح إلى الشيطان، لقد تحدثنا بما يكفي عن الأموات والعجائز والغوامض، في حين أنه لا يزال أمامنا الكثير من الحياة في آخر الأمر. أليس كذلك؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

إشارات

1. عالم الخطاة: وردت في الأصل باللاتينية
2. جرى إثباتها: وردت في الأصل باللاتينية
3. الجامعة حكمة الجميع: وردت في الأصل باللاتينية
4. من أجل مجد الله: وردت في الأصل باللاتينية
5. بهذه العلامة سوف تنتصر: وردت في الأصل باللاتينية
6. حيّ على الصلاة: وردت في الأصل باللاتينية
7. الفرانسيسكانيون (في الكاثوليكية): أعضاء طائفة من المتسولين
8. مثلما كان الأمر في البدء: وردت في الأصل باللاتينية
9. وحق الشيطان: وردت في الأصل بالإسبانية
10. ليتمجد الرب في الأعالي: وردت في الأصل باللاتينية
11. ليتمجد الرب: وردت في الأصل باللاتينية
12. ليحل عليك السلام: وردت في الأصل باللاتينية

المحتويات

كلمة عن هذه الرواية 5

القسم الأول: الرجل الذي جاء من العدم 9

القسم الثاني: المملكة 25

القسم الثالث: الكلمات 57

الخاتمة 75

إشارات 94

هذه الرواية المتألّقة بفكاهتها السوداء وعذوبتها وشعريتها التي تجعل منها واحداً من أهم الأعمال المرتبطة بروح عصرنا تكاد تكون رواية يعرفها كل واحد عاش الخراب الذي تلحقه الفاشية بالروح الإنسانية.

لقد استوحى الكاتب البرتغالي الكبير خوزيه كاردوسو بيريس في روايته «صاحب الفخامة الديناصور» شخصية الدكتاتور أنتونيو دي أوليفيرا سالازار الذي حكم البرتغال لمدة 36 عاماً و35 يوماً، ضمن نص يعتبر قمة إبداعية في الأدب البرتغالي الحديث، سجل أعلى المبيعات في معظم اللغات الأوروبية التي ترجم إليها مباشرة بعد صدوره. فعلى الرغم من أن خوزيه كاردوسو بيريس المولود في العام 1925 كان قد كتب قبل ذلك روايات عدة مهمة أخرى فإن روايته هذه عن «الديناصور» تمتلك عذوبة، تقربها من الشعر وتكتشف في الواقعي جانبه الخرافي الذي يرقى إلى مستوى الأسطورة.

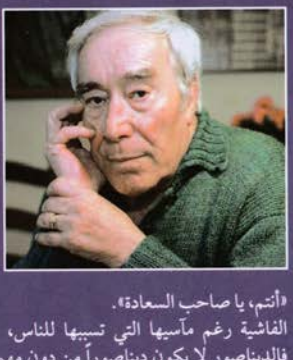

«ديناصور» خوزيه كاردوسو بيريس مخلوق استثنائي مثل جميع الديناصورات التي مرت بتاريخ البشرية. إنه يقيم مجده الشخصي على الجهل والفقر، ولكن أيضاً على حاشية من الدجالين المحيطين به الذين يصفقون له ويرفعون صوره هم «القواقع الدنيا» التي يوجدها البؤس والذل، والتي تزحف عادة من الأعماق البعيدة من المملكة. هؤلاء يصفقون له، حتى من دون أن يفهموا كلمة مما يقوله، إنهم يفغرون أفواههم، مفكرين ببطونهم الخاوية وفي العودة مرة أخرى إلى قراهم التي جاؤوا منها. أما حاشيته فهي طائفة من الدكاترة الدجالين الذين يكيد أحدهم للآخر، مع الاحترام الكامل، حيث يحيي بعضهم الآخر في الشارع: «أنتم، يا صاحب السعادة».

الفاشية رغم مآسيها التي تسببها للناس، ليس أكثر من فكاهة، كاريكاتير مثير للضحك والتسلية. فالديناصور لا يكون ديناصوراً من دون مهمات خارقة يسندها إلى نفسه. كان هتلر يريد أن يثبت تفوق العنصر الآري من خلال فرض السيطرة الألمانية على العالم كله، بل وإقامة حكومة عالمية، تدوم ألف عام.

telegram @soramnqraa